الصهيونى الغدار

قصة حقيقية دامية وقعت فى مدينة (طانجة)
إحدى سواحل بلاد المغرب الأقصى

مصدرة بنبذة عن أخلاق اليهود وعاداتهم وأوامر رؤسائهم
لهم فى معاملة غيرهم من الطوائف الأخرى

نشرها
مكتب مكافحة الوباء الصهيونى فى الشرق الأوسط
سنة ١٩٤٦

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــد

لا نريد بكتابة هـذه القصـة الواقعية التى وقعت فى مدينة طانجة إحدى سواحل المغرب الأقصى وكان بطلها يهودياً يدعى ناهون غادر البلاد الروسية إلى تلك المنطقة العربية لكى يجمع المـال ويصرفه فى سبيل الصهيونية وتأسيس المملكة السليمانية اليهودية بفلسطين، كما وإننى لا أريد الإفاضة بالبحث عن الصهيونية ومنشئها ، وكيف تكونت ، وتاريخ تحولها من أوروبا إلى فلسطين الشهيدة العربية ، فان كل ذلك كاد يكون معلوما لدى الخاص والعام مما نشرته الصحف وعالجته أقلام الكتاب . فان قضية فلسطين ليست بنت يومها وأمسها ، بل هى قضية قديمة العهد لم يظهر أثرها الفعال إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أى منذ سنة ١٩١٩ بدأ نشاطها يظهر للعيان. مع أن اليهود الصهيونيين كانوا يتسربون من روسيا إلى فلسطين بطريقة سرية أحكموا صنعها منذ عهد السلطان عبد الحميد الثانى فكل من زار فلسطين فى ذلك العهد التى كانت تسمى فيـه فلسطين (بسوريا الجنوبية) كان يرى كيف يتسرب اليهود إليها ويؤسسون الفنادق ، والبانسيونات ، يستخدمون فيها أجمل بناتهم وأولادهم لاستجلاب الناس إليهـا وابتزاز أموالهم بصورة يحمر منها وجه الإنسان خجلا .

التاريخ يحكم على أخلاق اليهود

لو دقق القارىء الكريم فى كتب التـاريخ ودرس أخلاق الأمة اليهودية الصهيونيـة من أول نشأتها إلى الآن لوجد أنهـا أمة طبعها

الاحتيال ، والمكر ، ودأبها ارتكاب الفظائع وكبائر الجرمات ، واختلاس الأموال ، تميل إلى كل عمل منكر ، وترتكب المعاصي ، وتبذل أعراض شاباتها ، وشبابها في سبيل جمع المال ، سريعة الانقياد إلى الاستعباد ، ميالة إلى الذل ، لا تعترف بجميل ، ولا تقر بمعروف ، كثيرة التذلل عند الغلبة والسقوط ، قاسية سفاكة في الانتصار . وهذا ما رمى بها في وهدة الذل وأدى بها إلى التفرق والشتات وهي مع ذلك لم ترتدع ولم تعتبر بل انها إلى يومنا هذا لا تزال ترتكب فظائع المنكرات ، وتستعمل طرق الغش والخداع ، والخيانة والغدر كما أشاهده الآن من خيانة هيآتها الإرهابية والسياسية للحكومة البريطانية ، والغدر برجال جيشها ، وذلك جزاء إحسان البريطانيين لهم وإيوائهم في فلسطين . فهذه الأخلاق المنحطة هي التي رمت باليهود في وهدة الذل ، وأدت بهم إلى التفرق والشتات وهم مع ذلك لم يرتدعوا ، ولم يعتبروا بل انهم إلى آخر لحظة لا يزالون يرتكبون عظائم المنكرات ، ويستعملون طرق الغش والخداع ولم يخطروا ان جعتهم هذه الأخلاق عرضة لإهانة الشعوب ، ونفور الهيآت الاجتماعية كما هو مشاهد الآن في كثير من البلاد الأوربية وجميع البلاد الأسيوية ، والافريقية بالرغم من انتصار بعض المتنعين هم ، وبعض الجاهلين بأخلاقهم وأحوالهم .

فرعماً عن كل ذلك تراهم متمسكين بعرى الأمل والآمال ، جادين غير هازلين لتحقيقها وإبرازها إلى حيز الوجود وهي احتلال جميع الأراضي المقدسة ، وإعادة مملكة سليمان . وإنا نثبت للقراء هنا خطاب

فظيع لرئيس اليهود الذين ألقاه فى اجتماع سرى لليهود فى مدينة لنتغراد ، أى بطرسبورج فى عهد القياصرة .

قال غض الله فوه ولعن أبوه :

لقد سن آباؤنا لنا جماعة المنتخبين من شعب إسرائيل فرضاً قضى أن نجتمع ولو مرة فى كل جيل على الأقل حول قبر السيد الأكبر والقديس الأعظم الرئيس « كاليب سيمون بن يهودا » حيث تعطى لرؤساء كل سبط من أسباطه سلطة الاقتدار على الأمور وحق الرآسة على التالدين من بنى إسرائيل . وقد مضى أيها الأعزاء ثمانية عشر جيلا والحرب الدينى قائمة على قدم وساق من الشعوب الذين اغتصبوا منه القوة التى وعده بها ابراهيم ومع أن إسرائيل كان فى خلالها ذليلا مهانا تطأه الأرجل وتتهدده الأعداء بالقتل ، والهلاك ، والسبى ، والنهب والطرد وجميع أنواع الاهانة والعذاب لم يسقط ولم يتولاه اليأس والقنوط بل ثبت ثبات الأبطال وتفرق فى أقطار المسكونة . وهذا لا يحط بقدره بل ببرهان أقوى وبأمر أحرى وجب أن تصبح الأرض تحت حكمه وفى قبضة يده . فان آباءنا ورؤساء ديانتنا قاوموا الصليب أجيالا عديدة وسنيناً طوالا . مع أنه قد عظمت قوته وكبرت شوكته حتى أصبح والملوك تعيش تحت لوائه والسلاطين ترفل بنعمائه وبدل أن يضر ذلك بأمتنا وصوالحها لم تزل قوتها تزداد يوماً عن يوم والشعب يرتفع ويعظم . فقد خضعت الأجيال الماضية لأعدائنا لكن الجيل الحاضر والأجيال الآتية يجب أن تخضع لحكمنا وتنفذ مقاصدنا وهى إعادة ملك سليمان لنا جماعة بنى إسرائيل . واحتلال أرض المعاد

نعم: لابدع أنها لنا فقد ملك شعبنا بقوته أعظم الملوك ونال بصبره وثباته خير كل مملوك ألا وهو المال العجل السمين الذى قدمه هارون قربانا لله وأصبح إله الأرض فى عصرنا هذا

فكيف لا نؤمل منه إرجاع السلطة لنا ونتفاءل بطلعته الناطقة القدرة والحكم بنا دون غيرنا وهو بنفسه القدرة والقوة وبه الجزاء ومنه الأمل وهو مفرج الكروب مذلل الصعاب وهو هو المحور الذى يدور عليه الكون كافة هو ملك الاستقبال هو حسن المآل . هذه المرة العاشرة التى بها يجتمع رؤساء الأسباط حول لحد سيدنا كاليب سيمون بن يهودا فى خلال الف سنة ثارت بها على أمتهم الاضطهادات الدائمة المشئومة للمداولة فيما يجب اتخاذه من الوسائط لتلافى تلك المصائب والانتقام ممن سببها لنا وجرها على رؤوسنا . نعم إن الهيئة فى تلك المرار العشر المذكورة قررت وجوب المقاومة والثبات وجاهرت بالعداوة لأعدائها وأقامت عليهم الحرب على ساق وقدم ولكن لم تكن لهم القوة التى لنا الآن ولا ذلك النفوذ الذى تحصلنا عليه بما ملكناه من الأموال العظيمة وذخرناه لهذا القصد . فيجب والحالة هذه أن يحيى ذلك فينا روح الأمل ونهب من رقدتنا فقد طاعت الأيام لنا وخضعت لأحكامنا وبذا بلا شك نتحصل على الغرض المقصود والغاية القصوى ونقتطف ثمرات ما أظهره شعبنا المقدس من الصبر الجميل والشجاعة العظيمة فى تلك الأيام المشئومة أيام كان أعداؤنا المسيحيون لم يخلعوا بعد عنهم ثوب الهمجية والتوحش أما الآن وقد خلوا به فى دورهم الجديد دور التمدن الانسانى فالواجب بأن نتخذ

تمدنهم هذا درعا متينا وحصنا حصينا نتقى وراءه سهام العدو ويدرأ عنا تواتر ضرباته ونتدبر فى هلاكه وإسقاطه إلى دركه لايكون لهمنها قيام . ونجتاز بقدم السرعة والثبات تلك النقطة التى تحول بيننا وبين قصدنا السامى وغايتنا المقدسة .

فلينتقل كل منكم معى بالفكر أيها الأحباء ولتنعم النظر فى حالة أوروبا الحاضرة بعين المنتقد البصير مانهجه إخواننا اليهود من الخطط واتخذوه من الطرق التي فتحت لهم ينابيع المكاسب ، وأمطرت عليهم سحائب الأرباح من ابتداء جيلنا الحاضر فانسالت بينهم كالأنهار فنظفت لهم الأرض ومحت ما كان مدونا فى صفحات التاريخ من دواعى الذل والهوان ، ومهدت لهم السبيل وسهلت الطرق الموصلة لتنفيذ مآربهم وتتميم غاياتهم . فقد أصبح اليهود عموماً وآل روتشليد خصوصاً أرباب المال وأصحاب الحل والعقد فى باريس ، ولوندن ، وبطرسبورج « لننغراد » وفينا . وبرلين ، وروما ، وفى جميع الممالك والبلاد فعليهم المعتمد وإليهم فى عظائم الأمور المرجع . وقد أصبح من المستحيل أن تشرع أعظم دولة وأغنى حكومة فى مشروع مهم أو أمر مالى إن لم يمد لهم بنو إسرائيل المساعدة ويمدوهم بالملايين والمليارات ، وأى ملك أو أى أمير يسعى لتكثير جيشه أو تقوية عسكره حفظاً على حياته وخوفا على مركزه الحرج من السقوط والزلة إلا وكاهله مثقل بأعباء الديون لنا ، وعليه فاننا أرباب المال وما لكوا الخزائن وقد يأتى يوم نسترهن الخطوط الحديدية والمعادن والفبارك وعموماً كل شىء ذى مقدار قبالة ما نقدمه إلى الممالك من المبالغ

العظيمة والقناطير المقنطرة وعند ما تعجز الدولة عن تسديد فوائد ديوننا الفاحشة نسترهن أيضاً ضرائب الشعب ومكوسه لتقوم بالعجز وسد المتأخر ويبقى علينا نقطة مهمة وأمر عظيم وهى الفلاحة معدن الغنى وأصل الثروة فان امتلاك قسم عظيم من عقارات الأرض وأراضى البسيطة تجعل لنا الشرف الأعظم والسلطة الكبرى على كل ذوى الألقاب الشريفة والمقامات السامية ويتبع ذلك أن نحمل ذوى العقارات الأخرى أنواع الضرائب وأعظم المكوس بحجة أن ذلك رفقا بجماعة العمال وإعانة الفقراء المزارعين ليسهل علينا شراؤها ويهون الحصول عليها . وعندما تصير إلينا جميع العقارات ويناط بنا وحدنا أمر الفلاحة ينضم إلينا أواسط الناس والعقلاء والعمال الذين لا مال عندهم ولا وسيلة لهم لاكتساب قوتهم الضرورى سوى أشغال اليدين فنستنتج من هؤلاء الفوائد الجمة ونستعملهم لأغراضنا وتنفيذ مآربنا فقد قال الحكماء « الفقر فيه العبودية » .

إن الشعب الاسرائيلى قد طبع على الطمع والكبر وشب على حب العظمة والجاه . ولقد وهب الله لشعبه الخاص رقط الحية ، ومكر الثعلب وخصه بالذكاء والحكمة ، ورمى فى قلبه حب الوآم والتجمع ، وميزه بالغيرة على أبناء جنسه . فلن يسقط شعب وهبه الله هذه الصفات . قد بلينا بسبى بابل ، وذقنا به مر العذاب . أما الآن فقد أصبحنا وحدنا القادرين على كل شىء . هدمت هياكلنا وحرقت مذابحنا ولكن شيدنا منها كثيراً وأقمنا بدلها ألوفا مؤلفة . مضى علينا فى العبودية ثمانية عشر جيلا وقد خرجنا من وهدة الذل واعتلينا على

كافة الشعوب . ورب قائل يقول بأن البعض من آل إسرائيل يتعمد بالماء ويعتنق الديانة المسيحية . لا بأس فقد خفى على ذلك القائل بأن كل من هؤلاء الجاحدين سيكون لنا عونا على أعدائنا وكذلك رب قائل يقول بن بعض بناتنا يضحون بشرفهم فى سبيل المال نعم لا يعلم أولئك الأغرار أن لكل يهودى ويهودية أن تستعمل جميع الطرق لجمع الأموال وقد أباح لهم المجمع اليهودى باحة أعراض بناتهم ، والسلب ، والنهب ، واتخاذ جميع الطرق المشروعة وغير المشروعة فى سبيل جمع الأموال لبناء الهيكل المقدس فى أرض المعاد بعد شرائها ولتأسيس مملكة سليمان وطرد أولئك العرب الذين لا تربطهم رابطة ولا تجمعهم جامعة كل أمير منهم يسير فى طريق وكل شخص منهم أنانى فبوسعنا أن نشترى أراضيهم بالأموال بل نشترى اشخاصهم ببناتنا واموالنا لهذا نقرر نحن فى هذا الاجتماع بث هذه الدعاوة بين ابناء إسرائيل فى جميع اقطار الأرض اهـ .

تأمل ايها القارىء الكريم بما يقرره رؤساء الطائفة اليهودية وما يرسلونه من التعاليم إلى ابناء طائفتهم يتضح لك اخلاق هذه الأمة المنبوذة من جميع الأمم الساقطة فى وهدة السفالة والشقاء .

كما وإننى ارجو من القارىء الكريم ان يتأكد ان القصة التى سأسوقها له بالطريق الروائى لم تكن إلا قصة حقيقية وقعت فى مدينة طانجة إحدى سواحل بلاد المغرب الأقصى وفى ايام المرحوم السلطان مولاى الحسن الكبير جد السلطان الحالى مولاى محمد وقد ادرك وقوعها كل من المرحومين مولاى عبد العزيز ، ومولاى عبد الحفيظ

سلطانى مراكش وكان وقوعها قبل القضاء على استقلال بلاد المغرب واحتلال الفرنسيين له بمدة قصيرة وقد حدثنى بهذه القصة احد شيوخ مدينة (فاس) عاصمة بلاد المغرب الأقصى وذلك فى اواخر سنة ١٩٢١ اثناء زيارتى لتلك الربوع العربية الجميلة التى قضى عليها الاستعمار الفرنسى فابتز اموالها ، ونهب حاصلاتها ، واضطهد زعماؤها ، وصلب على اعواد المشانق احرارها ، وملأ السجون من شبانها إلى غير ذلك من الأعمال البربرية التى تنفطر لها الأفئدة وتستدعى رجالات العرب إلى النظر فى حالها ، والتضامن لنصرتها وبذل الأرواح والمهج فى سبيل إنقاذها من الاستعمار الفرنسى .

اعود فاقول جمعتنى الصدف بذلك الشيخ الوقور احد كبار علماء مدينة فاس وتجارها الأفاضل ناهز الخامسة والسبعين من العمر ، كنت اقضى بعض الوقت فى حانوته التجارى نتسامر ونتحدث فسألته كم كان عدد الأجانب من نصارى ويهود فى عهد مولاى الحسن الكبير الذى يقدسه كل مغربى لحمايته المملكة المراكشية ومحافظته على استقلالها؟ فأجابنى : انه لم يكن يوجد فى المملكة المراكشية اكثر من ثلاثة افراد من النصارى فى مدينة طانجه فقط ولكن يوجد فى مدينة الرباط ، وفاس ، والدار البيضاء يهود يسكنون بحى خاص بهم يدعى « الملاح » ولا يجسرون على الخروج من منازلهم بعد غروب الشمس وكذلك يقفلون حوانيتهم يوم الجمعه والسبت فاستزدته إيضاحا عن اخلاقهم وقصصت عليه بعض احوالهم فى تركيا ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين وعن جبنهم وخيانتهم وكيفية سعيهم لتأسيس مملكة يهودية فى فلسطين.

١١

هنالك ضحك الشيخ من عجائب الأمور وتصرفات الزمن وقال : اسمع يا بنى اروى لك قصة عجيبة وقعت من يهودى يسكن مدينة طانجه مع رجل مسلم ادت إلى عرضها على القضاء ونظرت هذه القضيه فى هذه المدينه وكنت من الأشخاص الذين حضروها فى دار المحكمه إلى ان فصل فيها وقص على قصه طريفه رايت من الواجب إطلاع العالم العربى عليها فاعتزمت تقديمها للقراء الكرام — بعدالتصرف فيها تصرفا لا يمس حقيقتها — بقالب روائى وقسمتها إلى خمسة فصول :

الفصل الأول

حدثني الشيخ الوقور فقال: في السنة الثلاثمائة بعد الألف للهجرة كان في مدينة طانجة من أعمال مراكش . « المغرب الأقصى » رجل من كبار تجارها اسمه سيدى محمد الجزولى قد عرف بالاستقامة والكمال وحسن السيرة والخصال ومن أحسن ما اتصف به أنه كان يزداد لطفا واتضاعا كلما زاد ثروة واعتلاء حتى تعلقت به القلوب ولهجت بآدابه الألسن ، وكان له أصدقاء كثيرون أخصهم شاب من العائلات الكريمة اسمه أحمد بن محمد التازى ربى وشب في النعم ولكنه أفرط في الكرم حتى عد مبذراً وتفنن في الجود حتى أصبح مسرفا وآل به الأمر لخسران معظم أمواله وضياع أكثر أملاكه ولكن ما فيه من حسن الخصال والصفات كان يلجم عنه ألسنة السفهاء المعتدين فحفظ اسمه ، وصان شرفه وناموسه ، وكثيراً ما كان يحتاج إلى المال فيستمد بصديقه الحميم سيدى محمد الجزولى فيحسن ملقاه ولا يضن عليه بمال مع أنه لا يطلب عليه فائدة ولا يذكره بوفاء . فبينا كان سيدى محمد الجزول جالسا ذات يوم في بيته دخل عليه صديقه أحمد وكان قد غاب عنه زمنا فرأى علائم الكدر تلوح على وجهه ودلائل الحزن والكآبة بادية على محياه فساءه ذلك واشتاق

للاطلاع على سره ومعرفة خفايا أمره فبعد أن ارتاح صديقه هنيهة قال له :

أهلا بك بعد طول الغيبة ، ومرحبا بعد زمن الفراق فاخبرنى أين كنت ؟ ومن أين أنت آت ، وعلى الخصوص ماالذى يحزنك ويكدر خاطرك ، فانى أراك كاسف البال ، بادى البلبال ؟ فلعل فى الامكان تعزيتك وتسليتك فأنا أحب الناس اليك وأعز الأصدقاء لديك . فأجابه :

إن ما يكدرنى لأمر ذو بال لا يخفيه عنى الوالد أو الخال ولا أدرى فائدة من كشف حاجتى اليك إلا تضييع خاطرك ، او تكدير صفاء راحتك بينما أنت عن ذلك غنى وعن معرفتها مستغنى .

فرد عليه بقوله : إن كلامك هذا يزيدنى شوقا وتلهفا للاطلاع على مكنونات سرك فأحلفك فيما بيننا من وثيق المودة أن تبوح إلىّ بسرك وتخبرنى بحاجتك فإنى مستعد لتضحية النفس فى سبيل راحتك وتخفيف عنائك وإن لم أقدر على ذلك فاقتسم حزنك وإقسامك همك وغمك فلقد قيل :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فرد عليه بقوله : إننى يا سيدى ما جئت إليك إلا لأعلمك

بسرى وأطلب منك العون والمساعدة على أمرى فقد تعودت الاستقاء من بحرك إذا ما تلهب غليلى ، والاحتماء بظلك إذا ما أصابنى الضر ، ولكنى أحجمت عن طلبى هذا أولا : لأنى مدين إليك بمبالغ جسيمة أعجز عن وفائها اليوم أو غداً . وثانيا : لأنى أعلم بأن أموالك اليوم موجودة فى بلاد الاسبان ويستحيل عليك الآن قضاء حاجتى وإفراج كربتى . فأجابه : أراك عالما بحالى ومطلعا على حقيقة امرى فان جميع أموالى متفرقة والقسم الأعظم منها حملها بطرس وكيلى الأمين إلى اسبانيا . ولكن إن كان المال حاجتك فلا يتعذر على اقتراض ما تطلبه أو التعهد بوفاء دينك لمن تستدين منه فقل لى إذاً ما الذى يلزمك من المال ، وما الأمر الذى أحوجك اليه ؟

فرد عليه قائلا : بارك الله فيك يا صديق ، وجزاك خيراً على مروءتك فمثلك تكون الاصدقاء ، وبك تقتدى الخلان فإليك ياعزيزى حقيقة أمرى وأصل كدرى : إنى ما زلت سائرا بسيرتى المعهودة أضيع أموالى وأنفق ثروتى بالبزخ والاسراف حتى تكاثرت علىّ الديون ، وأصبحت من ضيق اليد فى شجون فرحلت ابتغى لى فى مدينة فاس عاصمة المغرب ملجأ ولما وصلتها سمعت الناس يلجهون بذكر اميرة من العائلة المستولية تدعى حبيبة قدنبغت بالعلم والأدب ، واتصفت بالعفة والشهامه والكمال

والصيانة ، فضلا عما تفردت به من الجمال الباهر ، والحسن الزاهر وقد مات أبوها وتركها وحيدة وخلف لها ثروة لا تحصى وغنى لا يقدر فتقاطر عليها الطلاب أفراداً وأزواجا من أعيان واغنياء فكانت تردهم خائبين تارة بالعنف ، وتارة باللين دون أن تدع لأحد بابا للكدر ، أو وجها للنقم . حتى ظن الناس انها تكره الزواج وتؤثر العزلة والانفراد ولكن اخطأوا فى ظنهم فان هذه السيدة مقيدة بارادة أبيها المتوفى الذى وضع لها حداً لا تتجاوزه ، وذلك أنه استحضر قبل موته ثلاثة أوان أحدها : من الذهب ، والثانية من الفضة ، والثالثة من الرصاص . ووضع احدها رسم ابنته وفى كل منها ابيانا من الشعر وأوصاها بأن لا تختار لها زوجا إلا من يقع اختياره على الآنية التى فيها صورتها . فامتثلت الأميرة مضطرة لأمر والدها فمن احبت منظره واستحسنت مخبره ادخلته إلى محل الأوانى فيخيب سعيه ويعود حزينا كاسف البال أما إذا لم يعجبها فانها كانت ترده من غير ان تطلعه على سر الآنية ولما بلغنى خبرها تشوقت إلى رؤياها وحدثتنى نفسى بالحصول عليها ، فعرضت عليها حسبى ونسبى فالقيت منها عين الرضى وحسن الالتفات ولكنى استصغرت نفسى لديها ورأيت نفسى قاصراً عن مضاهات اصحاب النفوذ والغنى والثروة الذين يتقاطرون إلى خدمتها ومع ذلك لم اقطع الأمل من الفوز بها حيث انى رأيت

منها اعتناء بأمرى فرجعت إلى هذه البلدة حزينا وأنت محل أملى ومحط رحالى فمالى لافراج هذه الغمة ، وقضاء هذه المهمة سواك وحاجتى الآن بثلاثة آلاف دينار من الأصفر الرنان فان ظفرت بالدرة اليتيمة أرجعت اليك كافة أموالك وإن حال دون ذلك سوء طالعى رجعت بالخيبة وردت لك هذا المبلغ وأبقيت وفاء الباقى إلى فرصة أخرى .

فأجابه سيدى محمد قائلا وهل تؤمل بالفوز مع علمك بأن هذه السيدة لا ترضى من البشر زوجا ؟

سأقرع هذا الباب مستعطيا فان رأيت فيه ملجأ ومأوى حصلت على غاية المنى وإن حبط مسعاى رضيت من الغنيمة بالإياب وارجعت مالك اليك ولا اعود بعد الآن لما تعودته من التبذير والاسراف .

فقال له: اذهب إذاً الى التجار واطلب منهم استلاف ماشئت من الأموال وانا اتعهد لهم بدفع المبلغ فى حينه إن تأخرت أنت عنه فأنا واثق بأنه لا يتأخر أحدهم عن إقراضك هذا القدر إذا علموا بضمانتى لك فانى عندهم من أعظم الأغنياء .

لا عدمتك أيها الأخ الكريم ، والصديق الحميم وإنى سأعود اليك حالما يتيسر لى اقتراض المال وأبشرك بأنى سأحظى عن قريب بربة الجمال والكمال فان قلبي يحدثنى بنجاح مسعاى على

يديك فاطلب لى التوفيق كما أطلب لك الخير واشكرك كل الشكر قال احمد هذا وخرج فرحا بقضاء حاجته مؤملا الحصول على منيته .

الفصل الثانى

حقد ومؤامرة ناهون اليهودى

هو رجل من يهود روسيا الصهيونيين سافر إلى طانجة واتخذها مقراً لأعماله وكان دميم الخلقة ، دميم الاخلاق سيء السريرة ومع انه واسع الثروة كثير المال فانه كثير البخل والطمع شديد الحرص واللآمة لاهم له إلا جمع المال ، وحشد الذهب قضى أيام شبوبته وشيبه فى الدعوة إلى الصهيونية ، وبث الدسائس والايقاع بعباد الله ومع ما اتصف به من أخس الصفات فانه كان منفرداً بالدهاء فريداً بالخدع والمكر قادراً على التزيي بالأزياء المختلفة يتظاهر أمام جيرانه المسلمين ، والنصارى بالوداد وحب الانسانية ، مع انه لا يضمر إلا الشر ويظهر بصبغة محب الخير والمعروف ، مع انه لايكن إلا الغدر وهكذا بقى خبثه مستوراً ، وفساده مكتوما فاعتقد الناس فيه خلاف ما يكن قلبه ولا يعلمون منه إلا أنه مرابي لايسلف المائة إلا بمائتين ، ولا يعطى الدرهم إلا باثنين ، وهو يعجب بماله ولا يلقى المستلفون منه إلا إعراضا وابتعاداً لعلمه

بأنه لا يوجد فى المدينة من يضاهيه بالغنى ويقدر على تسليف المبالغ الجسيمة للناس إلا رجل واحد وهو سيدى محمد الجزولى ولهذا تراه ناقما عليه يغلى صدره حقداً وقلبه انتقاما وبغضا لاسيما لأن الجزولى المذكور هو على غير دين التلمود[1] وانه يقرض المبالغ الجسيمة لكل طالب بغير فائدة أو ربح فلذلك يمنعهم من الوقوع فى مخالبه والاستجارة بجوره وظلمه ، حتى عقد النية على الايقاع به ، وحلف بآبائه وأجداده بأنه سيقتص منه وينشب فيه مخالب غدره فيبليه اولا بالافلاس والخراب ، ثم يأكل لحمه ويشرب دمه وجعل يفكر فى حيلة لبلوغ القصد والفوز بالمنى حتى ضاقت به المذاهب واعيته الحيل وعلم من نفسه العجز عن أذى هذا المحسن نظراً لما له من منعة الجانب بين الناس ، وعلو المكانة فى قلوب الاعيان فأضحى كاسف البال عليه دلائل اليأس وقطع الرجاء حتى ضنى جسده ونحل جسمه وغارت عيناه وأصبح فى حالة من الضعف محزنة .

وكان لناهون اليهودى هذا ابنة فى ريعان الصبى لا تتجاوز الثامنة عشرة من العمر واسمها إستر ليس لأبيها سواها وهى

---

(١) التلمود : عبارة عن مختصر مبادئهم الدينيه وعنوان سلوكهم المدنى . فهو يبيح لهم ما يميلون إليه ويشجعهم على استطراد خطتهم المزريه وهو من وضع الجمعيه السريه اليهودية بروسيا واورشليم .

فائقة الجمال زائدة الدلال ذات طرف كحيل وخد أسيل ، وخصر نحيل ، لطيفة المعشر ترمى بعينيها السوداوين القلوب ، وتبلى ناظرها ببلاء أيوب وهى مع صغر سنها وغضاضة صباها كثيرة المادة فى الحيل كثيرة الويل فى الخداع ، قادرة فى الدهاء والتقلب والمراوغة وبالاختصار هى أشبه الناس بأبيها . وكان يستشيرها فى المهمات ويرجع إليها فى الملمات فكانت تخاطر بنفسها حبا بأبيها فتمده بالحيل وتساعده بدهائها على حل المشكلات ولها فى عينيها وسحر طرفيها سلاحا قويا ينصرها كلما شنت الغارة ، فلم ترجع قط بالخيبة والخذلان وإذ رأت بأبيها الحزن والكآبة هذه المرة وألفت منه الضعف والنحول ساءها ذلك ونكد عيشها ولكنها كنّت هذا فى قلبها منتظرة أن يبوح ابوها بسره إليها .

ولما طال عليها المطال سئمت نفسها الانتظار وقلقت لحالة ابيها إذ رأته سائراً بالضعف والنحول فوطدت النفس على استطلاع الخبر فدخلت عليه يوما فى مكتبه الخصوصى الذى يتفرغ فيه لحسبان الأموال وصف المئات والألوف فرأته متفكراً مطرق الرأس لم يع من عظم أفكاره على دخولها إلا حين كلمته قائلة :

حياك يا والدى رب موسى وابراهيم ، وحصنتك بهارون ، ويهوذا ، وكاليب ، وجيوفا ، من شر ما انت مفتكر . ما لى

أراك كاسف البال مشتغل البلبال ، ناحل الجسم بادى الضعف . فهل لك حاجة فاقضيها وهل تصدى عليك احد فانتقم منه ، أو أغضبك فأسفك دمه قل لى بحق إله إسرائيل ما اصل حزنك وسبب همك وغمك فانك تعلم حبى لك ومقدرتى على مساعدتك فأجابها بقوله :

دعينى يا إستر اقاسى الهم وحدى ، ولاتتعبى النفس فى تسليتى وتعزيتى فانت غير قادرة هذه المرة على مساعدتى وتخفيف همومى ولا فائدة من اطلاعك على سرى إلا انشغال بالك واضطراب حواسك فابقى متمتعة برغد العيش بعيدة عن نكد هذه الدنيا وذوق لذة شبوبيتك وريعان صباك فاجابته : لا يهنأ لى عيش يا والدى ما دمت أراك مضطرب الجأش والحواس ولا بد من اطلاعى على حقيقة الخبر وإنى أعاهدك ببذل نفسى لتخفيف همك وإرجاع راحتك فالويل لمن تسبب فى تنكيد عيشك ولا عاش من كان أصلا لغمك وهمك . فقال إن كان لا بد من إخبارك بسرى فاسمعى يا بنيتى واصغى لمقالى فالأمر جلل والحالة خطرة تتذكرين جيداً ما طالما رددته على سماعك من افعال هذا العربى المجنون العاتى سيدى محمد الجزولى الذى يوزع امواله يمنة ويسرة ويجود بالذهب الوهاج بغير فائدة أو ربا وكنت اترقب ان تدور عليه الدوائر وتعود عليه افعاله بالخسائر وهو لا يزداد إلا غنى

وثروة وبقدرهما جوداً وتبذيراً وترينه محبوبا من الجميع نافذ الكلمة عند الرفيع والوضيع وقد سد على ابواب الأرباح وسارت أعمالى المالية بالتأخير يوما عن يوم مما يؤدى إلى عدم تنفيذ برنامج الصهيونية وإسعاد الطائفة اليهودية فقد سئمت نفسى احتمال وطأة هذا العربى اللعين ووطدت النفس على الفتك به وحلفت بموسى وهارون إنى سأنتقم منه . وترينى الآن مضطراً للحنث بيمينى والعود بالخيبة وحبوط المسعى إذ أرى ما هو عليه هذا الجاحد من الاقتدار والنفوذ وعظم الثروة والغنى . وهذا يجرح قلبي ويحرق فؤادى ويسبب لى ما انا فيه من الحزن والضعف فما العمل بهذا الشيطان الذى ضاقت دونه حيلى وعجز عنه فكرى .

فاطرقت الفتاة برأسها برهة إلى الأرض ثم رفعته وقد ابتسم ثغرها واحمرت عيناها فاهتزت هزة الطرب واعجبت اعجاب المنتصر الحاقد فتعجب ناهون لتلك الإشارات واستبشر بابتسامها وفرح لاحمرار عينيها فطار قلبه شعاعا وانتصب واقفا على قدميه وبغير ان ينتظر جواب ابنته قال لها : قولى يا إستر تكلمى يابنيتى ما الذى خطر ببالك وما الذى ارشدك إليه دهائك فقد حيرنى تغير حالك وبشرنى بالظفر والنصر على عدوى ابتسامك؟ : قالت نعم : لقد خطر ببالى خاطر وألهمنى إله إسرائيل لواسطة تضمن لك الفوز وتخولك الظفر فاسقاط هذا اللعين بين شفتىّ وخراب

دياره بكلمة منى وإننى سأجازف بنفسى ولا أضن بها عليك لتعلم إخلاص ابنتك لك ورغبتها فى راحتك لا يخفاك يا ابتى بأن الوكيل المتصرف بأموال سيدى محمد الجزولى هو بطرس النصرانى عدوك الألد وهذا الشاب قد فتنه جمالى ، واحرق قلبه دلالى ، وقد طالما اراد التودد إلى والاقتراب منى وكان لا يلقى منى إلا إعراضا وصداً وجفاءاً ، وذلك لعلمى ان لا فائدة من معاشرته ولا نفع من اصطفائه لأنه فقير الحال قليل المال ، وتكره نفسه خيانة مولاه وانتهاك حرمته أما الآن فالذى اعلمه انه سافر إلى اسبانيا يحمل معظم ثروة مولاه ليشترى بها البضائع ويختار التحف فلا يتعسر على ان اسافر إليه فأعلله بالآمال واغريه على الفرار بالمال إلى بلاد غريبة أو أوقعه فى بلاء عظيم ولو اضطرنى ذلك لتسليم نفسى إليه فيبلى الجزولى بالإفلاس ولا يلبث ان تطالبه اصحاب الديون وتلعب به ايدى الخراب فيبقى عليك ان تتدبر فى هلاكه وإعدامه الحياة فتصدق بيمينك وتفوز بمرامك فطار اللعين فرحا عند سماعه كلام ابنته واستبشر بقضاء وطره وبلوغ منيته فأخذته لذة الانتقام ورعشة القاتل فجعل يقبل ابنته تارة وطوراً يرقص كمن اصابه خلل او جنون وهو يكلم نفسه ويقول: لقد نلت بغيتى وفزت بوطرى فيالها يا جزولى من ضربة عليك. قاضية ومصيبة على رأسك ماضية فسأرتاح من شرك إذا خربت.

منك الديار ويخلو لى الجو بعدك ايها الجاحد الجبار ولأقتلنك بعدها شر قتلة واشرب دمك واطعم لحمك الكلاب .

ثم التفت إلى ابنته وقال : لا عدمتك يا ربة الجمال من محتالة ماكرة فقد فرجت كربتى وازلت غمتى وخلصتينى من غضب إسرائيل لو حنثت بيمينى ، فمثلك تكون النساء وإلا فلا ولكن إن اصابك ضر يا سيدة النساء فكيف اعيش بعدك او يهنأ لى عيش بعد بعدك نعم إنى سأنتقم من ألد اعدائى ولكن سأفقد اعز الناس لدى فهلا ترجعين عن هذا الرأى وتتدبرين حيلة بحيلة اخرى لإفلاس هذا الملعون تكون اقل خطرا عليك واسهل لديك . فاجابته : إنه لأمر تفقر دون إدراكه الحيل ، ومهمة تعجز عنها فحول الرجال وانها لا تخلو من الخطر على ولكن سيعينى إله إسرائيل وسأرجع إليك منصورة ظافرة واحظى بالأموال وافوز بالمنى . وإنى قد اكتب على نفسى بألا اتزوج إلا بمهر حصلته بعنائى وتعبى فها انا ذاهبة من الآن لإعداد لوازم السفر فادع لى بالنجاح والتوفيق . فقال : اذهبى مصحوبة بالسلامة محصنة برب موسى .

تأمل ايها القارىء الكريم هذا الحنو الوالدى ، وهذه الشفقة الأبوية اللذين حملاه على فوات فلذة كبده ، ووحيدة نسله وتسليمها إلى اعظم المخاطر واصغرها تعرضها للتهلكة والافتضاح

فأعمى غرضه منه البصر وألهاه عن النظر فى فظاعة ما يفعل وكل هذا رغبة فى الانتقام من رجل لا ذنب له إلا تدينه بغير دين التلمود ، ولا عيب فيه سوى الكرم وحسن الخصال وعمل الخير والمعروف فانه إذا رأى واسطة للانتقام وعلم ان فى إمكانه الوصول إلى الفتك بهذا « الجوى (١) » والتصرف بلحمه ودمه اسكرته خمرة الانتقام فلم يعد يعى على ان دون ذلك هتك حرمته ، وانتهاك عرضه ولربما ضياع حياة وحيدة الناس عنده واعزهم لديه ... الم يرتعش قلبك لدى التأمل بهذا العمل الوحشى او لم يقشعر جسمك عند هذه القساوة الصخرية فياويلك ايها اليهودى الصهيونى إذا حضرت امام القاضى الديان ، ومثلت لدى الحضرة القدسية لتطالب بما جنته يداك .

الفصل الثالث

خرجت إستر وتركت اباها وحيدا ثملا بخمرة الغدر ، فرحا بقضاء الوطر فجعل يفكر بالأموال التى سيربحها إن خلا له الجو ، وبالسطوة والنفوذ اللذين سينالهما إن بقى متفردا فى البلدة بالغنى عليه المعتمد فى المهمات ، وإليه المرجع فى الملمات فذكره هذا بما كان يسبب له عدوه قبل ذلك من الأضرار وخسارة المال وما قاساه منه من الأهوال

(١) يطلق لفظ جوى على كل إنسان لا يتدين بالديانة اليهوديه .

فانتصب على قدميه يرتعد غضبا ويرتعش غيظا وحقداً وجعل يمشي فى ارض الغرفة مرحا وهو يقول: لا. لا. إن هذا لا يكفيني وهذا الفعل لا يصدق به يميني فإني أقسمت اليمين المغلظة ان ابليه بالخراب ، واشرب دمه ، واطعم لحمه لوحوش الغاب فلا يهنأ لى عيش ولا يرضى علىّ جيوفاه إن لم اتدبر بهلاك هذا الملعون وارمى بنفسه إلى الهاوية التى لا قعر لها ولا زاوية ، ولا بد ان يأتينى صاغراً مستعطيا فيسهل على الفتك به وإيقاعه بالوبال ولكن ما الواسطة ؟ الهمنى يا إسرائيل وانت ياجيوفاه ويا سندنا المهاب هب إلى قلبي نعمة الحلول واهدنى إلى واسطة لإهلاك من كفر بك وانكر نعمتك ،

نعم صدق القديسون الأبرار لا واسطة اوفق من التودد لهذا الكافر بالتهود ، والتظاهر له بالصداقة والمحبة فأدعوه إلى وأكلفه لمناولة طعامى فأدس له السم واسقيه من يدى كأس الحمام وإلا انصب له الفخ وأوقعه بمكيدة فأرميه فى البئر واخفى منه الأثر ولكن كل هذا لا يكفى فلم آكل لحمه ولم اشرب من دمه فيجب ان . . . وفى هذه اللحظة طرق الباب فانتشله من بحر افتكاره واوقفه عن نسج حيله فوقف برهة مضطرب الحواس كمنتبه من نوم ثقيل وإذا بالباب يطرق ثانية فرجع إلى نفسه بالتمام وهرول نحو الباب يستطلع الخبر ولما وقعت عينه على الزائر

اصفر لونه ، وغمز انفه ، ورفع عمامته ، وحك قرعته ، ودمدم وتمتم ثم قال :

أهلا بالشهم الهمام ، ذو الجود والكرم كيف حالك أيها الصديق ولد التازى ؟ وكيف حال صديقك الحميم واخوك الكريم الجزولى ذو الفضل العميم ؟ شرفتنى ومننت على بما طالما احرمتنى منه فادخل على الرحب والسعة والكرامة والدعة . ولما استقر بهما الجلوس قال : هل لسيدى حاجة فأقضيها او خدمة فاتشرف بها ؟ لقد جئتك باناهون بأمر جلل وحاجة تهمنى وتسهل عليك وهى ان تقرضنى ثلاثة آلاف دينار اضف إليها ما ترغبه من الفوائد والأرباح فأدفع لك الجميع قبل مضى الثلاثة شهور فان قضيت حاجتى وفرجت كربتى فانى احفظ لك معروفك ما عشت واشكرك ما حييت . فأجابه :

اهلا بك ومرحبا فانى اقدم لك ما شئت ولأى ميعاد رغبت ولكن لى فى معاملتى شرط ارتاح إليه وقانون ارجع فى السلفات اليه وذلك اننى لا اسلف مالا بغير رهن او ضمانة فهل عندك ما ترهنه ، او لديك ضامن مقتدر على دفع المال ان تأخرت عن دفعه أنت ؟

لدى اعظم ضامن وأكبر ثقة ألا وهو صاحبى الودود سيدى محمد الجزولى صاحب الثروة الواسعة والمال الكثير .

فحك اليهودى فى رأسه وانكمشت اعصاب وجهه ثم تغير لونه ، واحمرت عيناه وسحق أسنانه وتغيرت جميع حواسه وبعد ذلك تهلل وجهه بالفرح وبانت لوائح الاضطراب على وجهه مذ بانت نواجذه ابتساما والتازى ينظر إليه ظانا انه يقدرالفوائد ويحسب القروش والبارات إلى ان قال : إننى راض بضمانة صديقك وصديق سيدى محمد الجزولى وقابل بتعهده وترانى مستعداً لإسلافك ما تطلب على ان تخبره بانى رضيت به ضامنا وتسأله المجيء إلى فى الحال لكتابة الشروط وقضاء الأمر فمواجهته لازمة لازبة . فأجابه : اشكرك يا ناهون على معروفك واهتمامك برد لهفة ملهوف ولكن هل لك ان تأتى برفقتى إليه فنتناول الطعام معا ونقضى الأمر هناك ؟ فقال ناهون : لا وحق إسرائيل إنى أعاشركم يا معشر المسلمين واعاملكم وانقدكم المال بالربا وامازجكم ولكنى لا آكل لكم طعاما تصنعونه بايديكم الدنسة فكيف بى وقد اكلت جديا مطبوخا بلبن امه ، ولحم ضأن بعروق ، فإنا لا نأكل السمن ، ولا نذوق اللحم إلا الكاشير فخل عنك هذا الكلام واسرع باحضار صاحبك والسلام .

ولما خلا بناهون المكان جعل يمشى فى ارض الغرفة بسرعة كلية مطرق الرأس مقطب الوجه ثم وقف بغتة وقال : اما كفى إننى ضحيت ابنتى وحرمتى ومننت باعز الأشياء عندى للانتقام

من هذا الجوى ، حتى اخاطر ايضا بالمال وابذل المبالغ الجسيمة لأفوز بغرضى واصدق بيمينى ...؟ ولكن ما الذى يضرنى إن ضحيت بثلاثة آلاف دينار لأرضى بذلك إله إسرائيل وافعل ما امرنى به التلمود فاسفك دم عدوه وعدو الدين الاسرائيلى واكون بهذه الواسطة امينا من الخطر وصرامة القانون . فنعم الصدفة وحبذا التوفيق فلا شك بأن هذا قد ساقه إلى عزرائيل ليجعلنى فى مأمن من وخامة العاقبة والمصير . فها عدوى الأكبر قد أتى صاغراً يرجونى قضاء حاجته فلعن الله جنسى وسبطى إن كنت لااقتص منه ، ومسخ الله وجهى إن رحمته فما الرحمة شأنى ولاالشفقة من اخلاقى فتلك اوهام يعدونها هؤلاء الأنذال فضيلة أما انا فعندى الإيقاع بمن لا يؤمن بدينى أعظم فضيلة لدى .

وبعد برهة وجيزة عاد التازى إلى منزل ناهون وبصحبته الجزولى فهش لهما اليهودى وبش ولما استقر بهما الجلوس قال ناهون للجزولى :

ـ إنى أجزل الشكر لإله إسرائيل حيث انه وفق لى خدمتك التى طالما تمنيتها . فلو احتاج صاحبك جميع ثروتى لما بخلت بها عليه إكراما لخاطرك . فأجابه الجزولى بقوله : اشكرك على اهتمامك هذا وجل ما ارغبه سرعة دفع المال إلى صديق لاضطراره إليه وأنت تعلم بأننى لولا ذلك لما أتيت إليك لأننى

لا أحب الربا . فقال اليهودى : وهل أخالف بهذا الفعل خطة إسرائيل ويعقوب بن إسحاق فقال له الجزولى : ويلك وهل كان يعقوب يسلف الأموال بالربا : فأجابه بقوله :

لا ولكن كان يسعى وراء الفائدة أفلا تذكر يا هذا أنه عند ما اتفق مع خاله لابان على قسمة الخراف وأخذ المخطط منها احتال على تكثير المخططة فربح بطريقته هذه ولا لوم ولا حرج . وقل لى بحقك ما فائدة المال إذا لم يجر المال ، فالحرص فى الانسان فضيلة وقد قيل الإسراف من الإنصاف . فأجابه الجزولى يا ناهون :

إنك تتخذ هذا دليلا على تحليل المحرم وليس ذلك بدليل ولكن الشيطان الخناس لا يعسر عليه إيجاد آية مشكلة فى الكتب المنزلة ليفسرها بحسب عقله السخيف وامياله الفاسدة ولكن ما لنا ولهذا الآن فانه لنا مسألة القرض .

فكاد اليهودى يتميز من الغيظ ويغمى عليه من شدة الخنق ولكن تمالك نفسه وقال : طالما عيرتنى يا جزولى بين القوم بخصالى وأعمالى فاحتملت ذلك بالصبر والصبر فى أمتى فضيلة ، وبصقت فى وجهى مرة وأوسعتنى شتما وإهانة لأنى على غير دينك فسكت ، والسكوت فى وقته فينا خصوصية محمودة وقد جئت إلىّ هذه المرة تطلب عونى وإسعافى وما زلت تهينى

وتحتقرنى فهل تنتظر ان افرج كربك الآن جزاءاً على حسن صنيعك معى وإحسانك المتوالى على .

فاجابه الجزولى : إنى لم آتك متذللا ، ولم اطلب منك لداعى حب او صداقة فاسلفنى المال وانت عالم بانى عدوك حتى إذا تأخر صديق عن وفاء دينك فى حينه ولم ادفعه انا لك الحق باجراء العدالة والقانون .

ولما رأى ناهون أن الحدة استولت على الجزولى رجع إلى نفسه باللوم وعمد إلى مكره المعتاد فقال :

لا تأخذك الحدة ايها الفاضل ولا تظن بأنى قصدت بكلامى هذا مس إحساسك كلا بل اعلم إنى راغب بمصافاتك ميال لمولاتك وإنى عربونا لصداقتى ، ورهنا لمودتى ساقدم لك الثلاثة آلاف دينار بلا فائدة ولا ربى ولا أكلفك انت وصديقك إلا بوفائها بعد ثلاثة اشهر بحسب الاتفاق . فقال له :

اشكرك على حسن صنيعك ولكن لا أريد ان اكلفك بما لم تعتاده فافرض علينا ما شئت من الفائدة . فاجاب :

لا وإله إسرائيل لا آخذ عليها ربحا ولا فائدة ولا ابتغى إلا مصافاتك ومودتك ولكن إن كان لا بد من فرض الفائدة فرضت عليك شيئا آخر فأجابه :

اطلب ما تريد وثق بأنى شاكر لفضلك . فأجابه :

إنني وعمر الحقيقة لا ابتغى عن صداقتك بديلا فهى عندى خير فائدة واعظم ربح ولكن مادمت مصمما على فرض الفائدة فلنشترط على سبيل المزاح شرطا يضحك الثكلان : وهو ان لم تنى المال بعد ثلاثة اشهر وفى مثل هذه الساعة آخذ من جسمك رطلا من اللحم من أى محل شئت . فاقبل بهذا الشرط الفاسد ودع الأمر ينتهى بالمزاح . فاجاب الجزولى :

انى قبلت والمروؤة بشرطك فهيء الشروط لاختمها وانى اصفك من هذه الساعة بالرقة والمعروف . فقال السيد التازى لصاحبه قسما بالله لا ادعك تقبل بمثل هذا الشرط الفظيع واعلم بأن الفاقة عندى احسن من إيقاعك فى مثل هذه الورطة فأجابه :

كن مطمئن فأنا واثق بأنه سيأتينى اضعاف هذا المبلغ قبل فوات المدة المعهودة بكثير .

قالى اليهودى : يا إله ابراهيم وإسحاق ويعقوب نجنى من شر ارديماء السريرة الذين يظنون بى السوء وفساد الطوية ، فاخبرنى بحقك أيها الفاضل بما تظن وبما تخشى وما الذى يخامر ظنك من مزاحى هذا أوهب أن الصحيح ما اقول واخذت رطل اللحم من جسم هذا الشهم الفاضل إذا تأخرتما عن الدفع فما الذى ينفعنى ، وبما استعيض عن خسارة مالى ، أبا لرطل اللحم الذى لا يساوى لحم الماعز والغنم ؟ أو هل سمعتما بأن صديقكما ناهون يأكل لحم

البشر حتى ظننتم مزاحى هذا قساوة وظلما ؟ ! فان كان ذلك ما تظنون فارجوكم أن لا تسالونى بعد هذا مالا ، ولا تقبلوا منى معروفا وغضوا الطرف عما اظهرته لكم من الود والولاء .

فسأمت نفس الجزولى من كثرة الانتظار ، ولم يخالجظنه قط لسلامة نيته بان اليهودى قد كذب ولا يقصد بشرطه إلا الانتقام منه وانتزاف دمه فقال : قلت لك يا ناهون انى قابل بالشرط ، فاقض ما أنت قاض لان الوقت قد فات فتناول اليهودى قرطاسا وقلما وجعل يرسم الشروط وكان التازى يقول لصاحبه انه خائف من أن يكون ذلك مكيدة نصبها اليهودى لهما لينتقم من الجزولى لعداوته له وانه مستغرب من الشرط وتحدثه نفسه بوقوع الشر ، والجزولى يضحك من تشاءمه وينسب ظنه للاوهام التى لا طائل تحتها ويؤكد له أنه واثق بالحصول على اضعاف هذا المبلغ قبل مضى المدة حتى انتهى اليهودى من تحرير الشروط فوقعوا عليها جميعا ثم اخذ المال وذهب مع صاحبه وتركا اليهودى يضرب أخماسا لأسداس .

الفصل الرابع

علم القراء بأن لسيدى محمد الجزولى وكيل اسمه بطرس كان هذا الشاب حميد الخصال ، حسن السيرة ، دمث الأخلاق لطيف المعشر وكان مع ذلك ذا مروءة وشهامة شريف النفس امينا صادقا تأبى نفسه الخداع والخيانة ، حتى صار له فى قلب سيده منزلة عظيمة فسلمه جميع أمواله وحكمه فى ثروته وأعماله ، وكان ينتدبه فى المهمات ويستشيره لعقله فى الملمات وهو مع ذلك لا يزداد إلا صدقا وأمانة وقياما على العهد .

فحصل انه رأى يوما إستر ابنة ناهون اليهودى فخلبت لبه وسلبت عقله فسحره لطفها وجمالها واسره ظرفها ودلالها وقد طال به الحب وازداد به الهوى حتى أضعفه واحرمه لذيذ الرقاد ، وعوضه عنه الأرق والسهاد . فجعل يتقرب إلى الغادة بالزلفى ويسعى لديها بالتذلل فاصغت إليه بادىء بدء وسمعت شكواه ولم تقطع له رجاء ولكنها صدته اخيرا وجفته اذ علمت انه قليل المال ضيق الربح ، فزاده صدها ولها ، وبعدها عشقا وتلهفا فكلما أراد التقرب إليها رأى منها نفورا ، أو كتب إليها بشكوى يبث لواعج غرامه لقى اعراضا وتغاضيا حتى زادته الأحزان ، وهجمت عليه الأشجان فضاقت فى وجهه المذاهب ، وسلم لقضاء الله

ورأى منه مولاه هزالا ، ونحولا وحزنا وكآبة فساءه ذلك لانه كان يحبه لأمانته ، وصدق خدمته واستطلع منه السبب فانكره عليه ، وقصد تسليته وتعزيته فلم يجده ذلك نفعا حتى تأكد أن بقلبه جرحا صعب البرىء ، وداء بعيد الشفاء فلم ير أوفق من إرساله إلى الخارج بمهمة يقضيها فيلهيه العمل عن الاشتغال بهمه وتسليه لذة التنقل عن تذكار مصابه فتنتعش روحه بهواء البلدان وينشرح صدره باختلاف المناظر فاستدعاه ذات يوم وقال له :

لا يخفاك يا بطرس أن البضائع قد فرغت لدينا ، وتكاثرت طلباتها علينا وقد اصبح عندنا كثير من المال وليس من الانصاف ان نبقيه ملىء الخزائن بغير فائدة ولا ربح ، ثم أن مراكبنا راسية فى مياه طانجة تكلفنا التكاليف الباهظة ، ولا يعود علينا منها اقل مدء فمن رأيي أن نرسلها لوسق البضائع ، وتحميل السلع غير انى احب ان استحضر فى هذه المرة تحفا لا تعرف فى بلدتنا من التى انتجتها معامل اوروبا العجيبة واختراعاتها الجديدة وهذه مهمة لا أرى لها غيرك ولا اعتمد فيها إلا عليك نظرا لما اعهده بك من الهمة العليا والذكاء والذوق السليم فما ترى فيما اقول ؟

فأجابه بطرس : لقد رأيت الصواب فمرنى بالذى تريد فانى اقرب إلى طاعتك من حبل الوريد . فقال الجزولى: انى اشكرك لانقيادك لأمرى فاحمل إذا جميع الأموال التى فى الخزينة واذهب

بالسفن إلى اسبانيا وامكث فيها زمنا اتخير فيه من البضائع أحسنها ومن التحف اجلها مما لا نظير له فى هذه البلاد لتكون العودة غانمة ، والتجرة رابحة ، وعليك بأن تمكث زمنا ولا تسرع بالسفر منها ليمكنك نظر كل شيء ، والاطلاع على كل جديد لكن حضورك واجب بعد ثلاثة اشهر لمطالب لا تجهلها اما الآن فقم لاعداد المهمات وتهيأ للسفر .

فخرج بطرس من حضرة سيده ممتثلا لارادته ، فأعد المعدات واللوازم وسافر بالمراكب فى اليوم الرابع متأسفا على مفارقته البلاد التى فيها قلبه ولبه ثم صعد إلى أعلى المركب وجعل ينظر الى تلك البلاد التى فارقها ، والأطلال التى نأى عنها ، يتنسم هواها ويستنشق عبير نسيمها حتى توارت عن عينه واستترت بالافق عنه فانفرد فى السفينة بعيدا عن الربان والنوتيين ، وضج بالبكاء والعويل ، وزاد فى الحسرات والزفرات حتى نضبت دمعته ، وخفت صوته ، فوقع على فراشه بدون حراك ، وقد خمدت انفاسه واغمى عليه . ولم يع على نفسه إلا بعد الأصيل فصعد إلى أعلى المركب يطلب بنظر البحر تسليته وبنسيمه انتعاشا فوجد فيها بعض الراحة لقلبه وبعض النسلية على همه هذا والريح معتدل والسفن سائرة تحملها الرياح ، وتدفعها الأمواج ، فى الليل والنهار حتى وصلت بهم سواحل اسبانيا فرموا فى ميناء فالانس المراسى

وأنزلوا الشراع ونام بطرس فيها ليرتاح من عناء السفر وضعف السهاد ، ولما نشرت الغزالة شعاعها نزل يوسف المدينة وبعد أن تفرج على مناظرها العجيبة ، وبدائعها المدهشة وتنقل فى طرقاتها وشوارعها خرج لتسلية النفس فى ضواحيها ، وترويحها فى رياضها ومنتزهاتها حتى مالت الشمس إلى الغروب فرجع إلى المدينة وافضى به الترحال إلى فندق مشيد هناك فدخله واختار غرفة للسكن وبعد أن تناول فيه العشاء مع جمع من الناس دخلوا جميعا لقاعة الجلوس فقطعوا وقتا بالمسامرة ، والحديث ثم ارفض المجلس فعمد بطرس إلى غرفة وهناك تحركت عليه الجروح وكرت عليه الشجون فتذكر بعده عن المحبوب وما قاساه من الم الجفا وتجرعه مرارة الفراق فتنهد الحسرات واسال دمعه على الوجنات فأزال بكاه عن قلبه بعض الحزن ، وهجم عليه سلطان الرقاد فتغلب عليه ونام إلى الصباح . ولما بدد الفجر جيوش الظلام نهض من مرقده منكسر القلب كليم الفؤاد ، ولكنه تصبر وتجلد وخرج إلى المركب واستحضر منه الأموال والمهمات التى تلزمه مدة إقامته فى تلك البلاد واخذ بعدها يزور المعامل وبيوت التجارة ، ويتفرج على المصنوعات والتحف وفى المساء عاد إلى المنزل وظل على هذه الحالة عشرون يوما بلياليها فتاقت نفسه للتوغل فى تلك البلاد الجميلة فركب أجنحة البخار قاصدا مدينة

(مدريد) عاصمة بلاد الاسبان فنزل فى افخم فنادقها وبعد أن تفرج على المدينة وعرف شوارعها وطرقها ومداخلها ومخارجها جعل يزور المعامل ويختار البضائع كما فعل فى ميناء (فالانس) مدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع خرج من النزل على حسب عادته وعاد إليه عند منتصف النهار لمناولة الغذاء فبينما هو على المائدة حانت منه التفاتة إلى الجانب الآخر فرأى فتاة وإلى جانبها رجل متوسط السن تسامره وتمازحه وهما يضحكان بصوت عال لفت إليهما الأنظار . فللحال ارتعشت يد بطرس ووقعت آلة الطعام من يده واصفر لونه وشخصت عيناه بالفتاة وجليسها ، ولم يزل كذلك مضطرب الجأش منزعج الحواس وهو مع ذلك لا يبدى حراكا ، ولا ينبث ببنت شفة كأنه اصاب اعضاءه الشلل ، ولسانه الخرس مدة دقائق خمس . أخيراً رجع إلى نفسه فتحركت يداه ، ونظر ذات اليمين وذات الشمال ثم حقق النظر فى الفتاة فصاح صيحة ، استوقفت الأبصار ، واستلفتت الأسماع ووقع إلى الأرض مغشيا عليه ، فاضطرب الجمع لوقوعه وحمله اصحاب الفندق إلى غرفته ، وتبعهم بعض الزوار فاعتنوا جميعا بأمره إلى أن أفاق إلى نفسه ، فالتفت يمنة ويسرة ، ونظر بين الحاضرين كأنه يفتش عن شخص ينتظره أو إنسان يترقبه ، ثم نظر إلى نفسه نظرة الخجل وطلب ممن حوله العفو على ما كلفهم من العناء

وشكرهم على اعتنائهم بأمره ثم طلب منهم العزلة والانفراد. فأخلوا له الجو، وكل منهم مشتغل بأمره متحدث بسره ولما خلا به المكان جعل يمشي في أرض الغرفة ذهابا وإيابا، منكس الرأس مضطرب الحواس وهو يقول: هل انا في اضغاث أحلام؟ وهل الذي رأيتها تغازل الرجل وتسامره هي إستر. أم أرتني عيني غير الحقيقة وتلك فتاة شبيهة لها... لا: لا: إنني لاشك في ضلال مبين وما الذي يأتي باستر إلى هذه البلاد وقد فارقتها في (طانجة) وتركت روحي عندها، وكيف يسمح لها ابوها بالسفر وهي وحيدته وسلوته لا عيشة له إلا بها ولا عمل إلا برأيها... نعم هي هي بنفسها فلم تر عيني إلا هي، ولم يقع نظري على سواها وكيف أجد لها شبيها وهي فريدة عصرها، وكيف اشتبه في معرفتها وصورتها مرسومة في فؤادي منقوشة على صفحات قلبي... فلا بد ان اتحقق الأمر واطلع على حقيقة الخبر ولا يمكني البقاء في هذه الحالة القاسية وانا معلق بين الأرض والسماء متقلب على جمر الغضا فيا سعادتي إن لم يخب ظني، ويا فرحتي إن تحقق أملي. فقام من فوره واصلح هندامه، ونزل إلى صالون الفندق حيث يجلس الزوار ولكن لم تطاوعه نفسه على الدخول إليه فأرسل فيه رائد طرفه من الخارج وحقق النظر في الجلوس فلم يجد غادته بينهم فتحير في أمره وجعل يفكر في

كيفية استقصاء الخبر عنها فخطر فى باله أن يسأل صاحب النزل عن تلك الفتاة الحسناء ولـكنه خاف ان يطلع القوم على سره ويعلموا أنها سبب اضطرابه فأحجم لهذا القصد عن السؤال ورأى الأوفق ان يطلع على سجل هناك يكتب فيـه أسماء الواردين للفندق فى كل يوم . ولم يكد ينظر فى السجل حتى ارتد مذعورا مجفلا وقد تغرغرت عيناه بدموع الفرح ، والسرور على وجهه قد طفح ، ولـكنه تمالك نفسه للحال خوفا من تحويل الأنظار إليه وعمد إلى غرفته فاختلى بها وأطلق لدموعه العنـان فسالت مدرارا ، واعطى لقلبه السرور فجعل يرقص كمن أصابه جنون ولـكنه لم يلبث ان تغيرت احواله وبدل فرحه بالـكآبة وسروره بالحزن فارتمى على كرسى وهو منكس الرأس مضطرب الحواس وبعد ان افتكر قليلا تصاعدت منه الزفرات ، وسالت العبرات ثم انتصب على قدميه وقد كفكف دمعه وملك نفسه وجعل يقول ما الذى أتى باستر الى هذا المكان وكيف نزلت فى هذا الفندق مع كثرة الفنادق وانتشارها فى انحاء المدينـة ، أهل لأجلى قد رحلت عن بلادها ونأت عن ابيها وعرضت نفسها للمخـاطر حتى اذا وصلت الى ميناء (فالانس) علمت منها انى بارحتهـا اقصد العاصمة فتبعتنى واهتدت هنـا لمحل نزولى . . . آه . آه . انى لا شك مجنون قد ذهبت بعقلى الأحزان والشجون فـكيف

ترحل عن بلادها لأجلي وقد جفتني إذ كنت بجانبها ، وصدتني ونفرت مني إذ كنت اتقرب اليها ، فهي لا تحبني ولا تميل إلى والسماء اقرب من قلبها إلى فما تلك الا اضغاث احلام ، وتخيلات واوهام يزينها لى الأمل ، ويظهرسا لى الغرام فقد انت هذه البلاد لمهمة اناطها بها ابوها وقد نزلت فى هذا الفندق كما نزلت فيه أنا ولا وجه هنا للاستغراب ولا سبيل للتعجب . . . فعلى ان ابعد عن بالى هذه الأوهام ولا اشتغل بالأحلام . . . ولكن كيف اسلوها وهى بجانبي وكيف ابعد صورتها عنى وهى منقوشة على صفحات قلبي وكيف اعرض عن رؤياها وطيفها لا يغرب عن عيني وهل يجوز لى بأن اتسلى عن هواها وقد كرست لها نفسى واهتم بابعاد غرامها عنى وقد اوقفت له قلبي . . . فتحكمى بقلبي يا ربة الجمال فهو ملكك ، وعذبي فؤادى يافاتنة اللحظ فهو أسيرك وافعلى ما شئت فانا عبدك فلاضحين بالنفس فى مناك ، واموتن بهواك . ولا بد لى من بذل الجهد من التقرب اليها ، فلعل قلبها يلين بعد الشدة ، ويرحم بعد القسوة فأرى منها التفاتا بعد الاعراض وصلة بعد الصد والهجر فيكون الله قد ساقها إلى هنا لأجل خلاصى ومن بها على لراحتى وسعادتى ولكن يجب على التأنى والصبر فالعجلة تورث الندامة والأسف .

فهم القراء بلاشك بأن التى رآها بطرس وسببت له الاضطراب

وانزعاج الحواس كانت ابنة ناهون اليهودى . نعم انها هى بنفسها فانها بعد ان خرجت من حضرة ابيها ذهبت فهيأت نفسها للرحيل وسافرت فى ثانى الأيام قاصدة فالانس ولما وصلت اليها علمت من السفن الراسية فى مياهها ان بطرس سافر منها منذ يومين إلى مدريد واقتفت اثره دون ان تضيع وقتا وهناك اتصلت بواسطة أحد خدمة السكة الحديدية إلى معرفة الفندق الذى اختاره فاتخذت فيه غرفة إلى الجانب الأيمن من غرفته ومكثت تترقب مجيئه حتى أتى للغداء وجلس إلى الجانب الأيمن من المائدة ففرحت بقدومه ووثقت من نفسها الاستيلاء عليه فجلست تجاهه الى الجانب الآخر ليراها اذا ما حانت منه التفاتة ولما رأته مطرق الرأس لا يلتفت إلى أحد من شدة الافتكار علمت بأنها هى سبب همه وموضوع فكرته فازدهت بنفسها واعجبت واستولى عليها الفرح وظهرت بين عينيها هزة الانتقام وعلائم النصر فقالت فى نفسها لم يزل حبى شاغلا منه الفؤاد ، وغرامى محرقا منه القلب ، وانعم بذلك من سلاح يخولنى عليه النصر ويسهل على الكرة فقد أزف وقت الحرب والصدام فلأقيمنها يابطرس عليك عوانا واذيقك من مكرى واحتيالى الوانا ثم انها جعلت تشاغل رجلا بجانبها فسحرته بسحر بيانها ، وأسرت لبه بدلالها ، ثم صادته بسهام لحظها ، واحرقت قلبه بنار خدها ، فتركته قتيلا بين يديها ثم

ابتسمت له فأحيت فؤاده ، وبشت فى وجهه ؛ فانشرح صدره ، ومازحته فعلا ضحكه ، وهى لا تقصد من ذلك إلا تنبيه بطرس اليها واصلاء قلبه بنار الغيرة عليها حتى حصل ما كانت ترقبه ، ورأت شدة تأثير الكرة الأولى عليه فطار قلبها من الفرح وتأكد لديها النصر والظفر . ولما حمل بطرس الى غرفته صعدت هى ايضا إلى غرفتها التى بجانبها لترقب حركاته وما يصدر عنه . ولما أفاق على نفسه بعد الاغماء سمعته يتأوه ويتحسر ويبكى ويتذمر فسرت هى وتهللت وهنأت نفسها بالظفر واعجبت بنفسها مزدهية كأنها تقول له لم تر بعد إلا طليعة جيوش مكرى ، وبعض مكائدى وغدرى فلا ذيقنك ضروب العذاب ، واطعم لحمك للكلاب ، أما صاحبنا فانه بقى يترقب الفرصة لبث لواعج غرامه وينتظر سنوح الزمن الذى به يتقرب اليها ويكسب رضاها وهو تمل بخمرة الحب ، آمن من صروف الزمن فكان يراها كل يوم على المائدة فيشغله رؤياها عن الأكل وهى مشتغلة عنه بمباسطة الرجل الاسبانى ومسامرته فيلتهب قلبه غيرة ويضطرم فؤاده حسدا ونقما ويترقب خروجها من مائدة الطعام فيراها قد أخذت بذراع الشاب المذكور وخرجا من الفندق فيتبعهما مستترا ولكن لا يخفى على اللعينة أمره فتزيد فى ضلالها وتضاعف من تزاهيها وتلويها ورفيقها يزداد فيها ولها ، وبهواها جنونا فيطفح

على وجهه الغرام ، ويحسب نفسه فى منام فيموت صاحبنا كمدا ، ويطفح صدره حقداً وغضبا ، فيتمنى الوصول إليهما ليفتك بذاك المعتدى على حقوقه ، ويحل محله فى ذاك النعيم الأرضى ولكن إذ يرى نفسه عاجزاً ، قتيل اللحظ وأسير الهوى ، وليس من يطلق سراحه فيبلغ مناه يكتفى من الحبيب برؤيا ليل شعره المسدول وثقل ردفه المتماوج ، ويقتصر عن التمتع به على تقبيل آثار رجليه اللطيفتين ، هذا وهو ذاهل العقل ، ذاهب الإحساس يمشى فى الطريق كالملهوف ، لا يعى على ما امامه ولا يحيد إلا عما يحجب عنه خيال من جذب عقله ، وسلب لبه، حتى إذا رجعا إلى الفندق رأى نفسه بجانبهما وهو لا يعلم ما يفعله ولا يعرف ما يرى ، وكان إذا أزف وقت المنام وحجبت جدران الغرفة سنا الحبيب عن عينه يجلس على عتبة الباب ويحيي سواد الليل بالبكاء والنحيب والتنهد والشهيق ، وهى تسمعه وتطرب وتتأمل بحاله وتتعجب ولا تزيده فى الغد إلا إعراضا وجفاء ، ولا توليه إلا تجنبا وتغاضيا ولم يمض عليه فى تلك الحال بضعة أيام حتى هزل جسمه بالانحراف وادركت روحه التراق والأطباء لا يعلمون له داء ولا يجدون له دواء حتى يئسوا من شفاءه ، ومكثوا يترقبون حلول أجله وتلاشى جسمه .

اما إستر اللعينة فانها كانت تتنسم كل يوم اخباره حتى علمت

أخيراً مصيره إلى حالة الخطر وقطع الرجاء ، فندمت على تفريطها بالرجل إلى هذا الحد لأنها لم تقصد باعراضها عنه وتظاهرها بالنفور منه إلا تملكه بالأكثر وتقييده بهواها فلا يعود له من يدها مناص إذا ما اظهرت له الميل وظهرت امامه بالمحبة ، اما الآن وقد افضى الى الخطر وسيقضى عليه ويغدو كأنه لم يكن فيذهب تعبها أدراج الرياح ، وترجع بالخيبة والخذلان لأنها ما جاءت إلا لتتدبر بافلاس سيدى محمد الجزولى إذا ما أغرت وكيله على خيانته او سلب المال الذى يحمله هذا بالاحتيال فتربح المال الذى كانت كسبته لو احسنت التدبير وإن اساءته بليت هى مع ابيها بالخسارة وسوء المصير ، وقد افتكرت بجميع هذا وسبب لها القلق وانشغال البال وعليه رأت بأن تصلح ما افسدته وترجع ماضيعته وما ذاك إلا إرجاع بطرس إلى قيد الحياة وهذا سهل لديها ، لأن بها كان مماته ، وبها ستكون حياته فشمرت للحال عن ساعد الجد وترقبت خروج الأطباء من عنده ولم يبق بجانبه أحد فدخلت الى غرفته واقتربت من سرير ولكنها لم تكد تنظر الى وجه المنكود الحظ الا وارتدت الى الخلف مذعورة ترتعد فرقا من عاقبة ما جنته يداها ، واكاد اقول بأنها تأثرت لحاله لو لم اعرف ان اليهود لا يعرفون للتأثير اسما ولا للشعائر الانسانية معنى . وانما توجد فيهم تلك الشعائر التى نقشها

فى قلبهم التلمود ، وتوارثوها خلفا عن سلف ، ألا وهى الحقد على كل عباد الله والانتقام ممن خرج عن دين التلمود او الفتك بمن يكسبهم قتله المال فالى هذه الحالة وصل المسكين اى الى حالة يرثى لها اليهودى فخافت استر لهذا من الوقوع فيما كانت تخشاه ولكنها تجلدت واظهرت الثبات واقتربت من سرير العليل وقالت بصوتها الرخيم كأنها تكلم احدا : — كيف حالة المريض ، وما يقول الأطباء فى شأنه ، وهل حالته سائرة بالتحسن او بالعكس؟ فتحرك المريض عند سماع هذا الصوت وتنفس الصعداء ثم فتح عيناه واجال نظره فى الغرفة حتى وقع على استر فاطاله فيها مدة وبعد ذلك ابتسم ثغره وغمضت عيناه ورجع الى الغيبوبة . فلما رأت انتعاش المريض لصوتها فرحت وعاودت الكرة فقالت بصوت يخالجه الدلال ويداخله التزاهى ، لا شك انهم يحكمون بوجوده فى حالة الخطر ، فهذا ظاهر عليه ولولا وجود تنفسه الضعيف لحكم من رآه بأنه اصبح من سكان القبور ، فهذه المرة كانت الكرة أعظم والصدمة أقوى دفعت المريض للانتصاب على فراشه ، ثم نظر ذات اليمين وذات الشمال ، واوقف نظره على استر ولم يغمض عينيه ونكس رأسه وجعل يشير بيديه كأنه يرغب ابعاد خيال تجلى له او إزالة تذكار طرأ عليه وهو يقول : اذهب عنى ايها الخيال الكاذب فما كنت لتخدعنى الأوهام

بعد هذا ومن أين لى أن يزورنى الحبيب وأراه بقربى وقد حكم على ببعده وحتم على جفاه وصده . ثم ضحك كمن يهزأ بنفسه وانطرح بعدها على الفراش ورجع إلى الغيبوبة فلو كان فى الحجر احساس لتصدع ، أو فى الجدران لتشققت حزنا لهذا المنظر المؤثر واسفا على ذبول زهرة هذا الشباب الغض التى وطأتها أرجل العدوان ، وكادت تضحى فى سبيل الضغائن والأحقاد . فأى وقع كان لهذا المشهد فى قلب هذه اللعينة نتيجة نطفة أبيها الخناس ومثال تربيته . انها ستهلك فرحا ، واهتزت طربا لهذا المشهد المصدع ، ولم تفتكر منه الا انها هى كانت اصله وسببه ، وهذا يخولها النصر ويضمن لها الظفر .

يا ويلكم أيها اليهود من شر ما تعملون ثم استعدت للصدام وانتقضت سلاح المكر وانطرحت على ركبتيها امام سرير العليل وهى تقول :

بطرس حبيبى أنا هى استر بنفسى فلم تر إلا الحقيقة فارحمنى واشفق على وقل لى بانك عفوت عنى وغفرت لى خطيئتى وعدنى بانك تعيش لى وفى وتمتعنى بحياتك وقربك وإلا فإننى اموت لأجلك لا محالة فلا حياة لى بعدك ولا راحة إلا بقربك . فانتصب بطرس جالسا عند اول كلمة وهو يرتعد ويضطرب فنظر إليها نظرة ذاهل العقل ذاهب اللب وهو لا يصدق مارى

ولا يثق بما يسمع ولما انتهت اللعينة من كلامها ادار وجهه نحوها واذرفت عيناه الدموع وقال : إلى متى تعذبني ياطيف الحبيب وإلى متى تجرح قلبي بتجليك اما كفاك تعديك وانا صحيح حتى تروم عذابي وأنا عليل ؟ اذهب عني يا خيالها المحبوب وخلني اموت بحبها ضحية جفاها وحدها فمسكت إستر بيديه وشدت عليهما حتى آلمتهما وقالت :

بطرس حبيبي ومهجة قلبي : ارجع إلى نفسك وانظر إلى امامك فأنا إستر بنفسي عزيزتك واسيرة غرامك ساجدة امامك انظر اليك بعيني ، والمسك بيدي ، واكلمك بلساني فارحمني بنظرة اوحيني بكلمة ولا تكن سببا لمماتي فانتصب بطرس قائما على الأقدام كمن صدمته بدجبار وابعد يده عن يدها كمن لسعته افعى ثم وقف عن إستر بعيدا وبعد أن اطال فيها النظر انطرح على قدميها باكيا قائلا :

استر حبيبتي مهجة قلبي منيتي جنتي حياتي انت استر بعينك وشخصك قد أتيت لزيارة عبدك وقتيل غرامك وهو على فراش الضنا والعذاب فبشرى لك أيتها النفس فقد عادت إليك الحياة وسعدا لك ايها القلب فقد وهبت لك السعادة . ولكن لما أيها الحبيب قتلتني بالهجران وأمت قلبي بالصد والجفا ، وكيف استحليت دمي وسمحت بهلاكي افلم يكن الأجدر بك أن تعاملني

بما ينطبق على جمالك اللطيف وخيالك الرقيق . . . ولكن عفوا يا حياتى فلا لوم بذا عليكُ فانا الذى سلمتك نفسى واوقفت لك الفؤاد ورضيت بأن اموت بغرامك ان لم احى به . . . اما الآن وقد منحت بالقرب بعد البعد ، وبالوصل بعد الصد . والجفاء فعدينى بأن لا تضنى بعد الجود ، ولا تهجرى بعد القرب والا فاتركينى اموت بحبك واروح ضحية تجنيك فمالى على بعادك اصطبار . وعلى هجرك طاقة اذ الموت راحتى والقبر ملجأى . فانطرحت المحتالة على أقدام بطرس تقبلها وتبكى وتتحسر وتتأسف تأسف النادم وهى تقول : عفواً يا سيدى عما سببت لك من العذاب بغير قصد ، ومن الألم بغير المراد فان اكن اذنبت فبحر حلمك واسع أو أتيت أمرا إدا فلى بحبك أقوى مجير وشافع ، واعلم بأنى ما رحلت عن اوطانى الا لأجلك ، ولا ركبت الأخطار إلا ودليلى غرامك فرغبة فى لقياك بارحت وطنى ومسقط رأسى وسعيا وراء التمتع بقربك تركت ابى وكل اقاربى وما كنت اصدك هناك وابعد عنك الا خوفا من والدى وخشية من تحدث الناس فى مع انى اسيرة غرامك وقتيلة حبك ولم اكد اعلم انك بارحت هاتيك الأطلال آتيا اسبانيا الا وتأججت نيران الحب فى احشاى فالهبتها ، ولم يعد لى طاقة على المكوث بعدك ساعة واحدة بل لربما حظيت منك بالذى ارغب فى البلاد الغربية حيث

لا أخشى فى حبك عذلا ، ولا فى غرامك لوما ، وما قصدت بصدك هنا إلا التمكن من محبتك ، وما منعنى من الانطراح على أقدامك إلا حياء النساء وماء وجه ربات الخدور ، وإننى لا أعلم انه سيفضى الأمر إلى ضرك وعذابك ومرضك وسقمك . اما الآن وقد تأكدت بقائك على محبتى فقد اتيت اطلب من حلمك عفواً ، ومن محبتك عذراً ، فانى مستعدة لتضحية النفس فى سبيلك ، والموت فى غرامك ، فخذ قلبى هدية بغير ثمن وتقبل حياتى ضحية ذكية . وها انا ذاهبة عنك الآن لئلا يضر بك التأثير والانزعاج فقد اصبحت لا تقوى على المكوث طويلا خارج الفراش فارجع إليه واسترح وتعاف وعش لأجلى فأنا لا ابغى الحياة من الآن إلا بك ولأجلك ، قالت هذا ومشت نحو الباب تتمايل تمايل الغصن الزاهى وبطرس شاخص بها متأمل فى بديع جمالها مطرب بلذيذ حديثها ولم يدعها تخرج إلا لأنه غاب عن الحواس ولم يعد يعرف اهو فى الأرض الفانية ام فى جنة الفردوس الدائمة ، ولما غابت عن عينه رجع إلى نفسه وتذكر بما كان فيه وبالسعادة التى نالها والتى سينالها وعمد إلى سريره ونام مطمئن البال مرتاح الفؤاد ، ولما انتبه رأى الطبيب بجانبه يتأمل فيه وينظر إلى حاله وعليه علائم السرور والاستبشار ، فكلمه

الطبيب قائلا :

لقد نمت هنيئا ومتعت عافية وشفاء إنى ارى فيك من علائم الشفاء والصحة ما حيرنى امره ، وبعد ان كان املى ضعيف بشفائك ، اضمنه لك الآن واهنئك به سلفا ، ولكنى فى غاية الاندهال والاستعجاب من هذا التغير السريع واظن بأن لذلك سراً وارجح ان هذا السر غم قد زال ، وكربة قد فرجت فتبسم بطرس إذ ذاك وفرح لكلام الطبيب وقال : إننى ارى بنفسى قوة ونشاطا واشتهاء للطعام وكل ذلك دليل الخير وبشير الصحة والأمل ان يكون كلامك صحيحا ولكن لا سر لذلك سوى اعتنائك بى واهتمامك بمداواتى فأشكرك عليها كل الشكر إنى مديونا لك بالحياة . فلم يغير كلام بطرس فكر الطبيب ، ولكنه لم يحاول استطلاع الخبر احتراما للاسرار ثم خرج بعد ان فحصه ووصف له العلاج واوصاه بالتحرز من البرد والتزام الحمية خوفا ان تكون النكسة شراً من الداء .

وبالحقيقة ان بالحب اسرار اوجدها الخالق الحكيم يحير فيها كل متأمل ، ويقف عن إدراكها كل تصور فما هى تلك القوة السرية وتلك الروح الخفية التى احيتا صاحبنا بعد الممات وارجعتا اليه الصحة بعد ان فارقته اننى اوجست خوفا من سبر غور هذا السر المكنون ، واحجمت احتراما لهذه الروح اللطيفة الخفية

فاقصر القلم عن الخوض فيما حارت فيه العقول .

ولكن لا حرج علىّ ان ابسطت ما سهل لدى فهمه وهو ان صاحبنا بطرس لم يصب بعلة ، ولا بمرض ولا بداء صعب البرء والشفاء ، بل ان علته كانت مجرد سقم ناتج عن انشغال الفكر واضطراب البال ، وما اصل كل هذا إلا حبه لشخص وشدة شوقه للتمتع به والانتعاش برؤياه ، فقام الحبيب من فؤاده مقام القوت من الجسد ، وصلته مقام الروح من الجسم ، ولما احرم فؤاد بطرس من القوت ، وجسمه من الروح عند صد الحبيب وهجره ، الهاه هذا عن الانشغال بأمر جسمه واحرمه القوت والرقاد فضنى وسقم وسار بالخوار وقارب الاضمحلال ، فكان من البسيط إذاً ان ترى هذا الميت قد عاش إذ رجعت اليه الروح وهذا الفؤاد قد اشتد عندما اتاه القوت . نعم : ان بطرس قد عاش بعد الممات ولم يمض عليه إلا ايام قلائل حتى رجعت اليه صحته ، وقام ينفض غبار العلة بسرعة توجب الحيرة والانذهال. وكثيراً ما كانت تزوره إستر ويزورها وتسامره ويسامرها وهى لا تفاتحه بما يخالج سرها لأنها كانت تنتظر رجوع القوة إلى بطرس ليمكنه بها مقاومة الصدام وصد السكرة حتى حصل على تمام الشفاء وتمكن من الخروج معها للتنزه فى إحدى ضواحى المدينة المقفرة ، فأقبلت عليه وقالت :

ها قد من الله عليك بالشفاء وردك الله إلى بعد قطع الرجاء والحمد له على ذلك فعدنى الآن بأنك لا تبعد عنى ، وعاهدنى على البقاء بجانبي فلم يعد لى صبر على فراقك ولا حياة بعد البعد عنك فأجابها : إننى افتخر بحبك لى واسعد لعلمى ان قلبك فى يدى وكيف ابعد عنك يا مالكة الفؤاد وبعدك كاد يحرمنى الحياة او كيف افارقك وقربك اعاد الحياة إلى فأعاهدك بأننى لا اعيش من الآن إلا بك ولأجلك وافضل الموت على البعد عنك لاسيما وإنى اعلم ان ذلك يسوءك ويكدرك فلا عاش من يكون السبب فى تكدير صفاء راحتك فاننى بعد ان اقضى اشغال سيدى هنا واقوم بالمهمة التى اناطها بى ارحل بك إلى طانجة . واخطبك رسميا من ابيك وإن كان دينك يغاير دينى اما إذا لم يقبل هو بهذا فانى اتزوجك بدون رضاه وإن اردت البقاء على معتقدك فأنت وشأنك فلا تعلق للدين فى حبنا ، وأنت دينى ومذهبى ومعبودى ومعتقدى ، قال هذا ونظر إلى عينيها نظر من يروم الاطلاع على خفايا قلبها فرآها كشيفة البال غارقة فى بحار التأمل ثم رآها نظرت إليه بطرف حزين وجرت دموعها على خديها وهى صامتة شاخصة لا تتحرك فطار قلب حبيبها لفعلها وقام فمسك يديها وجعل يقبلهما ويقول اخبرينى يا حياتى ماالذى يحزنك وما الذى يبكيك فقد احرق قلبى فعلك ، فقالت له :

إنك ترى السراب وتحسبه ماء ، والمنام وتظنه يقظة كيف يمكنى يا هذا الرجوع إلى اوطانى بعد ان شاع امرى واشتهر فيه حبى لك حتى علم انى رحلت منها لأجلك وفضلتك عن والدى واهلى واقاربى وكل ما هو عزيز لدى او كيف يزوجنى والدى لك وهو يكره كلما هو خارج عن دين موسى وبعيد عن التلمود ولو كان فى الامكان حصولى على منای وانا فى بلدى لما كنت رحلت عنها واتبعتك . وإذ رأيتك تنوى الرجوع إليها بكيت على نفسى وندبت سوء حظى وعلمت بأنى من آمالى فى غرور ، واعلم يا بطرس ان لاحياة لى بعدك وقدصممت لذلك النية على الفتك بنفسى ما لم تعدنى بأنك لا تبارحنى ولا ترحل عنى ولا تخلينى هدفا لسهام المصائب . فأجابها :

كيف يمكن يا ربة الفؤاد ان ابقى فى هذه البلاد وانا مأمور منتدب لقضاء مهمة سيدى فقد كلفنى بحاجته وسلمنى ماله ومراكبه وجميع ثروته فهل يمكنى إلا الرجوع إليه بعد قضاء حاجته لأرجع له ما سلمنى من المال ، فما العمل يا فاتنة اللحظ ، وكيف التدبير ، وبأى واسطة يمكنى ان ارضيك؟ فلم يكد يتم كلامه إلا وضحكت حتى استلقت على قفاها وقالت : إنك فى الحقيقة قليل الحيلة عديم التدبير فأى أمر ابسط واى واسطة احسن من فرارنا معا إلى بلاد غريبة حيث لا يعرف لنا خبر ولا يوقف لنا على أثر

وهناك نكون فى امان من صروف الزمان بعيدين عن استقصا الحكومة وصرامة القانون

فكانت الصدمة عظيمة ، والضربة قوية على رأس بطرس المنكود لحظ فدفعته إلى الوراء عدة خطوات فكأنه كان فى منام واستيقظ ، وفى غفله وانتبه ، وتجلت له الحقيقة الساطعة وكادت تعمى عينيه فارتعد منها فرقا ونظر إلى إستر نظرة المستطلع المتعجب الخائف لعله يرى منها ما يستدل منه بأنها قصدت بذلك مزاحا فرآها ثابتة صامتة ناظرة إليه نظرة الآمر المتحكم كأنها تأمره بعينيها للانقياد لإشارتها والخضوع لأمرها وهى تنتظر منه الجواب بالإيجاب . فرد عنها طرفه واطرق برهة إلى الأرض لا يتكلم ثم رفع رأسه مقطب الوجه دامع العين وقال لها :

لا . لا . فلا اخون سيدى ولا انكث عهده فانه إئتمنى على ماله وسلمنى ثروته ومصالحه واشغاله وانتدبنى لقضاء مهمة فى هذه البلاد فلا اضيع ثقته بى ولا اخيب ظنه فى امانتى . لا ليس الخيانة من شأنى ولا نبذ الجميل من خصالى وإنى افضل الموت على ان ابادى منى وثق بى بالخيانة ومن غمرنى جميله بالكفران .

فانتفضت إستر من الغضب عند سماع هذا الكلام ووثبت قائمة على الأقدام ونظرت مهددة موعدة وقالت : قد ظننت انك صادق فى محبتك ، ثابت فى غرامك فعللت نفسى بالآمال واملته

بالسعادة فى قربك واتبعتك . فلاجلك ركبت الأخطار وبارحت وطنى العزيز ونبذت الوالدو الأقرباء والأهل والعشيرة ولأجلك جعلت نفسى مضغة فى افواه الناس وارتكبت العار والشنار واخيراً لأجلك تركت دينى ومذهبي وجلبت على غضب ربى ووالدى ، كل هذا حبا بك ورغبة فى القرب منك ولم أكلفك مقابل هذا إلا المكوث بجانبي واجتناء ثمرة حبي كل هذا وانا اظنك صادقا فى محبتك مقيم على عهدك فعلمت بانك كسواك من الرجال لا تعرف للحب معنى إلا الشكوى ، ولا للغرام داعياً سوى الامال الجسمية . فأراد بطرس ان يقاطعها معترضا فقال إستر سيدتى فمنعته قائلة :

صه بطرس فلم يعد يخدعنى كلامك ويغرينى ظاهرك ولو كنت صادقا لآثرت البقاء بجانبي ولم تحفل بما تسميه خيانة ونكث عهد وما هو فعلك بجانب ما فعلته انا ، فانا الخائنة الجانية المجرمة واى خيانة اعظم من فرار فتاة من بيت ابيها وراء معشوق يدعى العشق والهيام وتسليم نفسها لمن لا يعرف مقدار فعلها . كل هذا فعلته لأجلك وما زلت ترى المكوث بجانبي خيانة ! . . . فاعلم ان الخيانة الحقيقيه هى تخليك عن امرأة ضعيفة تركت العالم اجمع وتعبتك ، وتركك إياها منكسرة القلب كليمة الفؤاد وحيدة بغير عون ولا سند ستقاسى من بعدك العذاب وتموت بعيدة عن ذويها

قتيلة حبك وضحية هواك . قالت هذا ثم بكت واشتكت وتنهدت الحسرات واسالت العبرات كل هذا وبطرس شاخص فى جمالها مسحور ببيانها وقد كسر غضبها سلاحه وابطل حسن إلقاها شوكته ولم يشك بأن كلامها صادر عن عظيم محبة شديدة غرامها لاسيما إذ رأى بكاها وسمع عويلها فانه اصبح ذاهل اللب ذاهب العقل محتارا فيما يقول مترددا فيما يفعل . ولما رأت المحتالة تأثير فعلها فيه ودلائل استيلائها على عقله فرحت وارادت تمام الاستيلاء وغاية الانتصار ، فمدت يدها إلى مابين ثديها واخرجت خنجراً ماضى الشفرتين وابتعدت عنه عدة خطوات وقالت بصوت تخنقه العبرة لا عيشة لى بعدك ولا لذة لى بالبقاء بعد بعدك فالموت ملجأى ولكن تذكر بانك انت الذى قتلتنى غدراً وأمتنى ظلما وان سامحتك بقتلى وضحيت لك حياتى فان روحى المظلومة ستزورك فى كل حين وتظهر لك بثوب المشتكى المتظلم وتناديك بذاك النداء المرهب المهيب انت كنت السبب فى قتلى فاطالبك امام الحق بحياتى . . . ثم رفعت يدها بالخنجر وكادت تضرب نفسها به حقيقة لو لم يهجم عليها بطرس وهو ذاهب العقل طائر اللب وحاول إمساك الخنجر من يدها فدفعته بعنف قائلة دعنى اموت الآن وانا اراك ولا اموت ضنا وسقما بعدك وأذهب قتيلة صدك وبعدك ثم جعلت تحاول ابعاد بطرس عنها

وإطلاق يدها بالخنجر لتضرب به نفسها .

إن القلم يقصر لعمر الحق عن وصف حالة هذا المسكين أسير الهوى والعوبة القدر فانه كان يتمنى ان تزوره المنية فى تلك الساعة المهولة ولا يقف هذا الموقف الحرج ويكون مخيراً بين ان يخون سيده ويفر بأمواله كالمختلس السارق او ان يسمح بموت مالكة قلبه وسالبة لبه بل حياته وراحته ومناه وجنته فيفى بعهده ويكون كالقاتل السافك ثم يموت بعدها إذ لا حياة له بعد موت قلبه . ولكن لا وقت هناك للتردد ولا فرصة للتأمل ولا بد من الاختيار العاجل ، فاختار اخف الضررين واهون الشرين (بنظره القصير) وهو ان يعد سارقا مختلسا ولا يكون قاتلاسافك للدماء فانطرح على أقدام إستر باكيا منتحبا قائلا : لم يبق لى إرادة غير إرادتك ولا فعلا مختاراً سوى ما تأمرين فمرينى بالتى تريدين فانى عبدك المطيع وأسيرك الخاضع ، وقد صدق فيما قال فانه قال هذا ولم يعلم مايقول وأتى اعظم المنكرات وهو لا يعلم ما يفعل فوطوباه من ضحية غدرو رحم الله ثراه من قتيل غرام . فقالت الغادرة عند ذلك وهى فرحة منتصرة . أنا لك منذ الآن فخذنى وتمتع بجمالى واجتن زهرة صباى فالفرصة مناسبة والموقف خطير .

الفصل الخامس

خرج احمد بن محمد التازى من مدينة فاس وترك الأميرة حبيبة أسيرة هواه لأن قلبها قد مال إليه لأول نظرة وتمنت لو أمكنها فى الحال أن ترمى بنفسها إليه وتقول له . خذنى فانى لك فلم يبق لى صبر عن جمالك وغنى عن حميد خصالك ولكنها كانت مقيدة بارادة أبيها فلا يليق بها أن تحنث بيمينها التى اقسمتها امامه فتهينه فى اللحد وتصبح هدفا لغضب المولى ، ولكن تمنت لو اختار احمد ذلك الاناء الذى فيه صورتها فترضى بذلك والدها وتفوز هى بمناها ووطدت النفس على تسهيل العلامات وتكثير الاشارات له لئلا يخطىء سهمه المرمى فتكون الخسارة على الاثنين . ومكثت تترقب رجوعه إليها فلم يرجع وقد جهلت بأنه سافر إلى بلده طانجة للحصول على المال ، ولو علمت لمنعته عن ذلك لا محالة وتلافت ما كان عتيداً ان يحصل من المصائب والأهوال ولكن قدر الله ذلك ليقضى أمراً كان مفعولا ويظهر غدر اليهود والصهيونية فسبحانه مدبر الكون بحكمته القدسية مسخر الكل لتنفيذ إرادته الإلهية . ولما طال على حبيبة المطال تعجبت من عدم رجوع احمد إليها لأنها أظهرت له كل انس وبشاشة وتركت له محلا للامل هذا فضلا عن انه وعد بالعودة

القريبة ولكنها مع هذا كانت تشعر بسرور فى قلبها وانشراح فى صدرها أملت منهما الحصول على مناها لأنها كانت ممن يعتقد بدلائل القلب وأمارات النفس ولهذا مكثت تنتظر رجوعه العاجل. هذا ولم تنقطع عنها الطلاب ولكنهم قلوا عن ذى قبل لحبوط مسعى الجميع ولم يكن يقصدها إلا أسير لحبها مغرم بهواها حتى جاءها يوما أمير من الجزائر من ذوى البسالة والاقدام المشتهرين بالشهامة وحميد الخصال ولكنه كان أسمر اللون تلوح على وجهه اثار الشجاعة والرجولية لا آثار الجمال واللطافة فاعرضت عنه بادىء بدء أولا لقبح منظره وثانيا لأن قلبها مقيد غير مطلق. ولكنه كان قد سمع بامر الأوانى والصورة فابى الرجوع الا بعد اختيار الآنية وجعل يستعطف خاطرها ويرجوها الالتفات والرفق فاضطرت مقهرة لمساواته بمن سواه وقبل أن تدخل به محل الاختبار حاولت منعه بقولها : انى سادخلك الآن محل الانتخاب ولكن قبل الدخول إليه يجب بأن تقسم لى اليمين المغلظة بألا تعود تفكر بمحادثة النساء والتزوج بغيرى اذا ما خابت آمالك وحبطت مساعيك لدى وإلا فارجع من حيث أتيت ولا تحدث النفس بالحصول على .

فقال لها بغير تردد : اقسم لك بهذا البتار وشرف اباءٍ وقومى الشجعان الاخيار بانى لا أعود إلى الفكر بالنساء وانذر بعد اليوم

الزهد والبكارة فلا يحركنى جمال امرأة ولا يهزنى دلال غانية ان حرمت التمتع بجمالك يا ربة الجمال الباهر الزاهر فدخلت الأميرة امامه إلى قاعة الانتخاب وهى توجف خوفا من نجاح مسعاه ولما وصل إليها أوقفته تجاه الأوانى وقالت اقرأ ما عليها وتأنى فى الاختيار فانت الآن بين أمرين اما الحصول على او تحريم النساء عليك فنظر الأمير إلى الأوانى فقرأ على الآنية الذهبية هذا البيت .

ان الذى يختارنى يحظى بما يبغى الكثير من الأنام نواله

ثم قرأ على الآنية الفضية :

إذا اختارنى طامع بالنوال فيعطى على قدر ما يستحق

ثم قرأ على الآنية الرصاص :

ومن يختارنى يقضى عليه ببذل النفس والمال النفيس

فتأمل طويلا فى هذه الأبيات وفكر مليا فى معانيها وهو متحير خائف فقال فى نفسه : ان اخترت آنية الرصاص خاطرت بنفسى وبكل مالى وذلك فى سبيل اناء من الرصاص الاسود الوجه ومن جهة أخرى فلا يحتمل بأن هذه السيدة العديمة المثال تشرى بالرصاص فعلى اذن باللجين الوضاح فلعلى اجد بياض حظى ببياضه فقد نقش عليه بأن منتخبه ينال ما يستحقه . ومن يستحق الأميرة أكثر منى وانا من بيت اثيل المجد رفيع العماد تخشى

الأسود بأسه . ولكن كيف اختار الفضة واترك الذهب فإنه منقوش عليه من اختارنى نال ما تمناه كثيرون . فهى المنى وهى غاية الأرب وفوق ما استحق فلا شك أن الذهب محل لصورتها فهى سيدة النساء وهذا سيد المعادن فلا أطمعن بالذهب واعرض عن الفضة ولاشرينها بأغلى الأثمان . ثم التفت إلى الأميرة وقال لها اعطنى المفتاح يا مولاتى فقد اخترت الذهب لأنه لون شعرك الفاتن فتبسمت حبيبة فرحا وهو يظن بانه أصاب المرمى وناولته المفتاح . ولما ازال به الحجاب عن داخل الآنية رأى فيها ورقة بدل الصورة فامتقع لونه واضطربت حواسه وكاد يغيب عن الصواب لولا حيائه من الأميرة فتمالك نفسه وتشدد وتناول الورقة بيد مرتعشة وقلب مرتجف فقرأ فيها هذه الأبيات

يغتر كل امرىء فيما له ذهبا ... ما كل لامعة من معدن ذهبا
يا طالما باعت الأقوام انفسهم ... حبا بوصلى ليحووا الجاه والنسبا
رأوا إلى وجهى الوضاح فانبهروا ... وفاتهم أن تحت الوجه بئس نبا
وأن طى نواويس مزخرفة ... نتانة ورفاة تجلب العطبا
فلو حويت الذكا والعقل فيك كما ... تحوى الجسارة والاقدام والأدبا
لما ضللت وفى ذا الحكم من غلط ... اخطأت واخترت حمل الهم والنصبا
قد خاب مسعاك فاذهب آيسا قنطا ... وارجع بخفى حنين واقصر الطلبا

فكاد فؤاده يتمزق من شدة الغيظ ورشده يغيب من كثرة

الأسف ولكن علم أن لا مرد لهذا الحكم ولا سبيل لاعادة الانتخاب فودع الأميرة وهو منسكر الفوآد وزكى قسمه الأول بآخر انه لا يفكر بعد هذا قط بالنساء وهكذا قضى على هذا الباسل بأن يموت بحبه ولا ينال من الغرام بغيته . وبعد أيام قصدها آخر فحلفته اليمين ورجع كالأمير بخيبة المسعى لأنه اختار الفضة وابى أن يخاطر بنفسه وما لديه لو وقع اختياره على الرصاص وحصل هذا من كثيرين غيرهما فرجعوا بخفى حنين وهى تنتظر مجىء احمد التازى والغريب بأنها كانت كلما توالت الايام على على غيابه ازدادت يقينا برجوعه واملا بالحصول عليه فسبحان المنجى الحكيم الرؤوف الحليم وأخيرا ما زال املها حتى تحقق فان احمد مذ حصل على المبلغ بضمانة صاحبه لم يمكث ببلدة طانجة الا بضعة أيام لقضاء ما يلزمه من الحاجات ثم سافر بعدها إلى فاس فوصل إليها وهو يطير فرحا ويهتز طربا وقصد على الفور قصر الأميرة حبيبة وهناك خفق فؤاده وحسب للفشل ألف حساب ولكنه لم يلبث ان اطمأن باله اذ ظهر له نور ابتسامها ويمن رضاها فرحبت به وانزلته محل السعة وقامت باكرامه كل القيام وبعد أن مكث لديها ساعة قال لها انى قد اتيتك الآن خاطبا ولفريد جمالك طالبا انى لست اهلا لك يا من تفردت بالجمال ولا استحق يا من هى وحيدة فى شرف الأصل وحسن

الخصال ولكنى ساضحين النفس حبا برضاك واستسهل الصعب فى سبيل منالك فلعلى استحق هذا الجمال بأماتى وهذه الذات باخلاصى فأرجوك أن تقابلى طلبى بالرضا وتحليه محل القبول قالت :

جئت على الرحب والسعة ايها السيد المهاب فانى ارضى بك زوجا واختارك لى بعلا لأن الشهامة تلوح عليك وملامح المروءة والرقة تشير إليك ولكنك تعلم انى مقيدة بامر والدى فلا اعصى أمره واخالف وصيته وقد بلغك على ما اظن خبر الأوانى الثلاث ففى احدها صورتى ان اخترتها فانا لك وملك يديك , وغاية منای أن تصيب المرمى وتختار الصحيح لافوز بك واحظى بلطفك فقد سئمت نفسى الانتظار واخشى من الوقوع فى ايدى من لا ارضاه فأجابها بقوله :

اشكرك مولاتى على ما ابديته من الرقة والتعطف وحسن الالتفات وانى اعد نفسى سعيدا ان حل طلبى لديك محل الرضا والقبول . فهيا بنا من الآن إلى محل الاختيار فلعلى افوز بالمنى بالهام الحكيم الستار وحالما وقع نظره على البيت المنقوش على آنية الرصاص قال هذا هو حالى وما يليق بشأنى . فاننى جئت مخاطراً بنفسى وكل ما لدى فان لم انجح فى هذه الكرة لم يبق لى فى الحياة مطمع وصار الموت عندى اعز الأشياء فابتسم عند

ذلك وقال لقد اخترت آنية الرصاص يا سيدتى بعد الاتكال على الله فلعلى فزت بالمنى ونلت المراد . فانطرحت الأميرة عند ذاك على عنقه وجعلت تقبله وتقول له انت زوجى من الآن فقد اخترت الصحيحة . والحمد لله على وقوعى فى ايدى من احب واختار فعانقها هو أيضا وبلل عنقها بدموع الفرح وهنا نفسيهما يبلوغ الأرب . وبعد مضى يومين اولمت الأميرة حبيبة الولائم ودعت الأكابر والأعيان فزفها أهلها الى احمد بن محمد التازى باحتفال رائق وابتهاج فائق ، والناس بين حاسد له على النعمة التى نالها ومهنىء بها .

وكان الجزولى فى كل هذه المدة مطمئن القلب مرتاح البال لا يحسب للمصاب حسابا وهو يترقب وفود وكيله بطرس بالاموال والتحف فيفى اليهودى ماله لبينما يظهر من صاحبه خبر كل هذا وناهون اليهودى يهزأ به ويترقب بفروغ صبر انقضاء الأجل ولما قارب الانقضاء تعجب الجزولى من تأخير وكيله وحدثته نفسه بوقوع مصاب عظيم وخاف من انقضاء الأمر واجراء الحكم عليه وقد علم الناس بأمر الشروط الغريبة وعلموا أن فى الأمر سرا مخيفا وقصداً منوياً وخاف بعض الأصدقاء على الجزولى من مكر اليهودى الملعون فذهبوا إليه وسعوا لديه بتحوير الشروط وطلبوا منه الرفق فقال لهم : عبثا تتعبون انفسكم

من تغيير مقاصدى فاذهبوا الى صديقكم وانذروه بتنفيذ الشرط المتفق عليه فلا مناص من تنفيذه .

فقالوا له وما فائدتك يا ناهون من قطع لحم الرجل . فدمدم اليهودى وتمتم واخذته هزة الانتقام فقال : كم مرة أسلف المال بغير الربى وعارضنى فى اشغالى حتى الحق بى التاخير والخسران وليس هذا فقط فانه طالما اهانى واحتقرنى وطعن فى امتى وكره الناس بى فاحتملت كل ذلك بصبر وذلة . اما الآن فقد حان وقت الانتقام وتمزيق لحمه باسنانى وطرحه لسمك البحار . ياقوم أليس اليهودى بشر مثلكم ، نعم هو مثلكم إلا فى معتقدكم وفى الانتقام منكم فهو يهودى لا يعرف الرحمة وحقود غرامه الانتقام فاعلموا ذلك وانقلوا كلامى هذا بالحرف اليه وخلوه يستعد لشرب كأس الحمام من يد من لم يخش بأسه إلى الآن . فذاع هذا الخطاب فى المدينة وبلغ مسامع سيدى محمد الجزولى فخاف على نفسه من الهلاك وكتب إلى صاحبه احمد التازى بفاس يخبره بكلما حصل ولكن الأجل انقضى قبل أن يخضر الجواب من التازى فرفع اليهودى امره إلى قاضى المدينة ودخلت القضية فى التحقيق .

أما ما كان من أمر احمد التازى فانه وصله كتاب صديقه الجزولى فطار قلبه اسفا على حالته ولام نفسه على انشغاله بالغرام

عن صديقه حتى قضى الأمر ولكنه يعذر من جهة ظنه أن المال متوفر لدى صديقه وجهله ما طرأ من الحوادث فللحال دخل على قرينته الأميرة وقص عليها القصة فاعطته عشرة آلاف دينار وقالت له اذهب بنفسك إلى طانجة لخلاص صديقك فان كل هذا قد حصل من أجلك فسافر ممتثلا لأمرها وهو يتمنى لو كان له اجنحة يطير بها إلى خلاص صديقه . أما الأميرة فانها بعد أن خرج زوجها اسرعت إلى السلطان الذى هو خالها وطلبت منه أن ينتدبها للحكم فى هذا الأمر فقبل السلطان طلبها وقال لها ان قاضى طانجة محتار فى الأمر وقد بعث يطلب رأيى فيه فالبسى لبس القضاة وسافرى إلى طانجة نائبة عنى وأنا واثق بأنك ستصرفين هذا الأمر بدراية وحكمة .

وفى اليوم المعين لسماع المحاكمة تقاطر الناس افواجا وفرادى لسماع الدعوى حتى غصت بهم قاعة الحكم والدار ولما افتتحت الجلسة برئاسة القاضى وعضوية حاكم طانجة طلب القاضى من اليهودى أن يشرح دعواه فشرحها وبين ظاهرها وطلب الحكم بتنفيذ الشرط المتفق عليه من الجانبين فجعل الحاكم إذ ذاك يعظ اليهودى ويحذره من عقاب الله اذ اصر على الانتقام فلم يحوله الارشاد والنهى عن عناده وقال لا معنى عندى للرحمة ولا مجال للعفو فعليكم أن تنصروا الحق وتحكموا بتنفيذ الشروط والا

قلت على العدل والحق والسلام .

فقال له القاضى : كيف تنتظر من ربك رحمة ولم ترحم غيرك فقال لا ابتغى من ربى رحمة ولا أروم من القانون رفقا وكيف ابغى الشفقة وليس فى شرطنا رحمة أو اشفاقا فاحكموا بالعدل يا خدمة القانون الصارم واعطوا الحق ذويه وإلا فدعونى أقول أن الحق والعدل قد ضاعا من العالم . فاجابه القاضى برزانة . إن صفة الرحمة يا ناهون لا حد لها ولا نهاية فهى كالغيث ينزل على الراحم والمرحوم فيكون لها بركة ونعمة . وإن شئت فقل إنها ألزم للقلب من القوت للجسد وإلا فمن فقدها عدّ كالوحش الكاسر أو كالذئب المفترس . أما مقدارها فهو بقدر عظم مقام الراحل وهى ضرورية للمقتدر وأكثر ضرورة للملك من صولجانه ، لأنها دليل الحلم والعفو والإحسان . وذاك عنوان العنف والقوة فعليك بالرحمة يا ناهون وارفق بهذا الرجل الكامل الصفات ولا تجعله يلقى الشر فى هذه الدنيا جزاء ما تعوده من الخير والإحسان فتضاد بذلك الإرادة الإلهية والطبيعة الإنسانية وهذا فضلا ن انى اتعهد لك برد . لك وفوقه ألف دينار .

فقال ناهون اليهودى : كنت اظنك منصفا ياحضرة القاضى وأعدك الآن فيلسوفا بعد ما سمعت ألفاظك الدرية وافكارك السامية فما فائدتى من الرحمة وهل تجوز إذا كان بها الظلم والاخلال

بالقانون ؟ فليست الرحمة من العدل . أما الأربعة آلاف دينار فلا ارضاها واعلم بأنك أتيت للحكم باخق لا للصلح والمساواة فافعل اذن الواجب عليك ولا تدخل فيما لا يعنيك . فصاح احمد التازى وقلبه يتمزق من الغيظ والحزن : إرحم أيها اليهودى وترفق بحالى فان عفوت عن هذا الرجل صرت انا مع جميع اصدقاء الجزولى لك عبيداً واطلب مقابل عفوك ما شئت منى فلاجلى وقع فى يدك فخذ منى إذاً عشرة الآف دينار بدل الثلاثة او عشرين او ثلاثين . فأجابه اللعين بتأن وهو باسم مسرور : لا اطلب غير رطل لحم من اقرب نقطة من قلب الجزولى . فقال له آخر : ارض بثلاثين الف دينار فهى خير لك من قطعة لحم لا قيمة لها . فأجابه اليهودى : إن رطل اللحم فى شرعى لا يقابله ثمن ولا تقدر له قيمة ، وقال آخر : ارحمه يا يهودى و شفق على اصحابه فأجابه إننا فى موقف الانتقام لا فى موقف الرحمة فضاق صدر الجزولى عند ذلك وفرغ صبره وسئمت نفسه الحياة فقال للقاضى بأنه هو ايضا يطلب الحكم بتنفيذ الشرط وان خصمه لم يطلب إلا الحق . فقال له القاضى : قدم له صدرك إذاً ففعل فأخذت اليهودى عند ذلك هزة الانتقام فقدحت عيناه الشرر ، ونفث صدره ثم الحقد والضغينة واستل سكينا اعدها لهذا القصد وتقدم نحو فريسته وهو يرتعش من الفرح .

فطار فؤاد احمد التازى لفعله وهجم كالأسد على اليهودى فاختطف السكين من يده وهو ينتفض من الغضب وصاح بملء صوته : يا ويلكم ايها الحكام من غضب الله وعقابه هل اصابكم جنون حتى تسلموا ناصر الإنسانية وابن الوطن إلى هذا اليهودى الصهيونى المتشرد القاتل المرابى السفاك ؟ أو هل قدت قلوبكم من الصخر أو جردت عن الحق والإنصاف حتى تتركوا الدم الزكى البرىء يهرق بأيدى الضغينة والعدوان المدنسة فتبا لهذا القانون . فزجره القاضى على فعله وقال له: لا تتعرض لما لا يعنيك ودع الحكم لأربابه . ثم التفت نحو اليهودى وقال له : هل أتيت بميزان لتزن اللحم ، وجراح يمنع الدم من النزيف ؟ فقد عزمنا على إنصافك وإعطائك حقك . فقال اليهودى : قد أتيت بالميزان ولكن لم يخطر ببالى الجراح إذ لا يهمنى إن مات غريمى أو عاش. فقال القاضى : حيث انه لا يمكننا الخروج عن القانون ويجب علينا ان ننصفك ونحكم بتنفيذ شرطك كما هو فقد أذنا لك بقطع رطل لحم من جسم غريمك كما تطلب ولكن إياك أن تسقط نقطة واحدة من دمه فليس مذكوراً فى الشروط أن تأخذ من دمه فحياتك إذاً تكون فداء لنقطة واحدة من دمه . وإياك أيضا أن يزيد المقطوع درهما واحداً عن الرطل فتقدم الآن لنفذ الحكم بحضرتنا . فصاحت الجموع إذ ذاك وعلت منهم اصوات

الفرح وتصفيق الاستحسان ودار الأصدقاء بالجزولى يهنئونه وهم معجبون بحكمة القاضى التى أشبهت حكمة سليمان .

أما اليهودى الغادر فكأن صاعقة قد انقضت عليه فأخمدت منه الأنفاس أو أن الأرض انقلبت به فرمته فى قعر الجحيم فعلته صفرة الأموات وجرى دمه بارداً فى العروق وشعر بسوء منقلبه وأحس بعاقبة خيانته وقال : إن كان الأمر كذلك وهذا مستحيل فقد رضيت بالمال الذى عرض على وهو ثلاثين الف دينار. فصاح التازى وهو فرح بسلامة صديقه نعم أعطيه المبلغ. فقال القاضى : أنتما ترضيان بهذا الاتفاق ولكن العدل والقانون يقضيان بأن يأخذ اليهودى رطل اللحم مع المحافظة على الشرطين اللذين اشترطتهما المحكمة . فعلت ضجة الاستحسان ثانيا فى قاعة الحكم وفرحت الجماهير لرجوع اليهودى بخفى حنين واليهودى يلطم ويبكى ويندب ماله وابنته وبعد صمت رهيب قال القاضى أنه بناء على المادة ٩٠ من القانون الجنائى المراكشى التى نصها : « إذا حاول يهودى قتل خارج عن دينه يقتل ثم يعطى نصف أمواله للحكومة والنصف الآخر لغريمه » قدحكمت المحكمة بنص هذه المادة على ناهون اليهودى الصهيونى الذى ثبت عليه محاولة قتل سيدى محمد الجزولى التاجر المسلم حتى أمام المحكمة . فصاح اليهودى مولولا وضج بالبكاء والعويل وطلب من المحكمة أن

ترفق بحاله . فقال له القاضى : لما كان العفو من شيمتنا والرحمة من شريعتنا فقد عفوت عن حياتك ولكن لابد من ضبط امولك لأنك جعلتها حبائلا تصيد بها الناس وترمى بها عباد الله فقال ناهون لا بل اقتلونى ولا تبقونى بعد أموالى ساعة واحدة فلا حياة لى بغير المال . ولكن لم تصغ المحكمة لكلامه وأصدرت الأوامر بتنفيذ الحكم عليه .

فأخذ سيدى محمد الجزولى نصف مال اليهودى فاستعاض بعض خسارته وسافر مع صديقه إلى مراكش فسبقتهم إليها الأميرة وهناك علما بأنها هى التى حكمت فى القضية وتصرفت فيها بتلك الحكمة الباهرة .

أما اليهودى فإنه لم يمض عليه زمن إلا ومات حسرة وحزنا على فقد امواله وأبنته ورجوعه بالخيبة والخسران فاستراح الجزولى وصاحبه من شره وفرحوا بموته ولم يعد هناك ما يكدر صفاء راحتهما أو يشوب رغد عيشهما إلا انقطاع أخبار بطرس عن الجزولى لأنه لم يكن يخطر بباله بأنه يقدم على خيانته وفى أحد الأيام جاءه الخبر أن إحدى الجرائد الانكليزية قدأدرجت مقالة فحواها : انه دخل منذ شهرين إلى لندن عاصمة بلاد الانكليز شاب وفتاة جميلة الصورة فنزلا فى إحدى الفنادق العالية فأكثرا فى المدة الأولى الدخول والخروج وهما يصرفان الأموال

الطائلة ويزوران كافة محلات الزهو والملاهى حتى استلفتت حالتهما أنظار رجال البوليس فراقبوهما ورأوا أن الرجل كان فى كل هذه الملاهى والمسرات كاسف البال بادى الحزن والكآبة مع أن رفيقته مبتهجة متهللة . ثم انقطعا بعد مدة عن هذه السيرة وندر خروجهما من الفندق إلى أن حدث فى الشهر الفائت ان أصحاب الفندق دخلوا إلى غرفة هذين الضيفين ورأوا الشاب ملقيا على الأرض مضرجا بدماه وأن الفتاة قد فرت . فلم يعد هناك شك بأنها الفاعلة لهذه الجريمة فطاردها رجال البوليس حتى القوا عليها القبض وهى على حدود إنكلترا تبغى السفر إلى فرنسا فحوكمت وما زال بها القاضى حتى اعترفت بأنها الفاعلة لهذه الجريمة وأنها تدعى إستر أما الرجل فيدعى بطرس وهو وكيل لرجل من أعاظم تجار مدينة طانجة يدعى سيدى محمد الجزولى وهم جميعا من بلدة طانجة من أعمال المغرب الأقصى . وقد عشقها الشاب وهرب بها إلى هنا بأموال سيده فطاوعته هى رغبة فى أمواله حتى تسنت لها الفرصة ففتكت به وفرت بالأموال فحكمت عليها المحكمة العليا بالأشغال الشاقة المؤبدة ووضعت الأموال فى صندوق الأمانات حتى يطلبها التاجر المذكور

فتكدر الجزولى لهذا الخبر وحزن لموت وكيله لأنه علم إذ ذاك بأن تلك الفتاة كانت ابنة ناهون اليهودى فهى غائبة عن

البلاد ولم يسمع لها خبر من عدة أشهر . فأدرك أنها فعلت ذلك
باتفاق مع أبيها للانتقام منه فوقع الانتقام على بطرس .
فعزى عائلة وكيله على فقده وغمرها بالانعام ثم طلب
أمواله من الحكومة البريطانية وأرسل فى طلب
المراكب الراسية فى مياه أسبانيا لأنها كانت لم
تزل تنتظر رجوع بطرس . وقد عاد إليه
عزه وعادت إليه أمواله وعاش عزيزاً
بأصدقائه محاطا بأحبائه إلى أن أتاهم
هادم اللذات ومفرق الجماعات
سبحان الحى الذى لايموت .